على أن الزعيم الحكيم يستطيع أن يدرك من وراء السياسة والحكم رضا قلبه ورضا شعبه ورضا ربه إذا تأبّى على المطامع، وتعالى عن الشهوات، ووجّه قوى الحكومة والأمة كلها إلى هذا الجهاد المقدس. إنه إن أحسن التنبيه وأخلص التوجيه وأحكم القيادة، أبلى بلاء الرسل دون أن يتصدى لمخاطر الرسالة، وجوزى جزاء الملوك دون أن يتعرض لمكاره المُلك، فأجناده يضحّون وهو يُعبّد، وقواده يحاربون وهو ينتصر، وأنداده يفنون وهو يخلد!

* * *

ليت شعرى هل كان يفكر فى ذلك صاحب الدولة رئيس الحكومة القائمة حين قطع العزم على أن يكون برنامجه فى الحكم مفاوضة الاحتلال فى مصر والسودان على الجلاء، ومجاهدة الجهل والفقر والمرض حتى الفناء؟!

نعم، طوى برنامجه السياسى على هذين المطلبين، ثم أخذ يهيىء لهما الأسباب ويُرصد الأهَب، فألف وفد المفاوضة من رجالات السياسة، وفى الوقت عينه ألف مجلساً أعلى لشؤون الطبقات الفقيرة من وزراء المعارف والشؤون والصحة والزراعة والتجارة، وجعل لنفسه الرياسة فى الوفد المفاوض وفى المجلس الأعلى، ثم بدأ العمل فى الميدانين على السواء. والذى يعنينا اليوم ذكره أن هذا المجلس الأعلى قرر القيام بطائفة من أضخم المشروعات الثقافية والاقتصادية والصحية، تحقق العدالة الاجتماعية، وترفع مستوى العيش لجمهور الشعب وهو صلب المجتمع وأداة إنتاجه وعدة دفاعه؛ ورأى تنفيذاً لتلك الأعمال الخطيرة أن يعقد لها قرضاً وطنياً بخمسين مليون جنيه يُثمّر فيه عفو المال وفضلات الرزق فتجدى على صاحبها مرتين: مرة فى نفسه، وأخرى فى جنسه!

من تلك المشروعات المفيدة ما يعالج الجهل كإصلاح التعليم الإلزامى، ومحو الأمية فيمن شبوا عن الطوق وجاوزوا حد الإلزام. ومنها ما يعالج الفقر والمرض كتقسيم القطر إلى وحدات اجتماعية عامة، تنقسم كل منها إلى عشرة آلاف وحدة، تتمثل فى كل وحدة جميع الوزارات المشتركة فى هذا المجلس الأعلى فتكون سفيراً بين الحكومة والفلاح، وصلة بين العلم والزراع، ورسولا من الطب إلى المرضى، ووسيطا بين التاجر والمنتج، وبرزخاً بين الناس والمعرفة؛ وتلك هى الأعمال التى أنشئت لها وزارة الشؤون فلم تستطع النهوض بها، ولم تصارح الناس بالعجز عنها؛ وظلت تعمل على هامش الحكومة: تصدر المجلة، وتعلن الموالد، وتسجل النقابات، وتزور المساجين، وتستقبل العمال، وتأخذ شيئاً من كل شىء، ولا تؤثر أبداً فى أى شىء! وكان من وسائلها المرجوة لو رزقت ملكة الإبتكار، أن تدير المال والرجال بمثل ما يدبره اليوم رئيس الحكومة فتذلل العقبة التى وقفت دونها خائرة حائرة لا تعرف لأمرها قِبلة ولا دِبرة.

لقد عبأ رئيس الوزراء قوى الحكومة والشعب لمحاربة أعدائنا الأربعة، وليس فى الأمة اليوم كما يقول شبابها وردد كهولها من يضن بماله ونفسه على هذه الحرب، فهل آن لمصر السادرة فى الخلاف والغى أن تدرك سر النهوض، وتعرف حقيقة الإصلاح، وتعلم أن الأمة لا تكون متمدنة إلا إذا امّحت هذه الفروق المخيفة بين الخاصة والعامة، وبين المدينة والقرية؟ إنك ترى الفقير القروى فى جسمه الضاوى وثوبه الخلق ووجهه المطبق، ثم ترى الغنى الحضرى وعليه زهرة العيش ونضرة الصحة ونور العلم، فلا تصدق أن هذين الرجلين يرأسهما وطن واحد، وترعاهما حكومة واحدة!

إن معرة الاحتلال العسكرى تصيب المحتل فى شرفه وضميره، لأنه يبرره بضعفنا ويؤيده بقوته؛ ولكن معرة الإنحلال الفكرى والجسدى والاجتماعى تصيب الشعب فى كرامته ودينه، لأنه يرضاه وهو قادر على الافلات من ربقته.

لذلك كنا أحرياء أن نفكر بعض التفكير فى عاقبة هذه الأمور؛ فان الوزارة الصدقية محدودة الأجل بنتيجة المفاوضات، فإذا أخفقت مفاوضة الاحتلال، أو مال ميزان الانتخابات إلى الشمال، اعتزلت الوزارة الحكم لا محالة. وإذن يحق لنا أن نتساءل عن مصير العملين العظيمين اللذين بدأهما صدقى باشا؛ فأما المفاوضات السياسية فسيستأنفها وفد يتلوه وفد إلى أن يرث الله الجزر البريطانية ومن عليها، لأن هذا النوع من الجهاد كلام ونحن نجيده، وسلام ونحن نريده. وأما هذه الهبّة الإصلاحية فأغلب الظن ألاّ تستمر، لأنها بناء ونحن نحب الهدم، وعناء ونحن نؤثر الراحة، ومجد ونحن نكره أن يكون لغيرنا الإكرام! والله سبحانه وتعالى قادر على أن يخيب هذه الظنون. وأن يقول للشىء كن فيكون!

احمد حسن الزيات

كافور الأخشيدى

للأستاذ أحمد رمزى

احتدم الجدال فى إحدى الليالى بين مصرى وعراقى ، فقال الأول : « رحم الله الحجاج بن يوسف الثقفى » ؛ ورد عليه الثانى وقد تملكته سورة الغضب : « رحم الله كافوراً الأخشيدى » . واشتد حنق المصرى إذ وجدها كبيرة على نفسه أن يحكم بلاده كافور ، فلما ألقى إلىّ ذلك قلت : « يا صاحبى لا تحزن ، إن أبا المسك الأستاذ كافور كان أميراً من أكبر الأمراء ، وعاهلا من أعظم ملوك المسلمين بمصر ، ويزيد بلادنا فخراً أن تولاها مثله كما لا ينقص من قدره سواد لونه ، بل فى ذلك دليل على علو همته . وإن لونه لم يقعد به عن بلوغ أعلى المراتب ، ودليل على أننا لا نفرق بين الأبيض والأسود ، لأننا جميعاً سواء . وإذا أخذ عليك ولاية كافور علينا ، فقل إن ملكه شمل مصر والشام ، وإنه كان يخطب له على المنابر بمكة والمدينة والحجاز جميعه ودمشق وحلب وأنطاكية والثغور وفيها طرسوس[١] والمصيصة وغيرها من الأقاليم التى خضعت لسطوته ودانت لسلطانه كما ذكره الفرغانى ونقله ابن خلكان فى ترجمته لكافور . فإذا وجدت معرة بكافور فاسأل غيرنا تجدهم قد شاركونا فيها ، فكيف وليس فى الأمر معرة علينا ، بل مفخرة لنا ؟ »

« أليس كافور من أبناء السودان ، وكلنا ننشد الوحدة الشاملة ؟ فكيف تستكثر على أحد أبنائه ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحته ؟ وهل كان كافور عاطلا هملا حتى تؤاخذنا به ، أو نبرأ من ولايته وإمارته ، وهو الذى قال فيه أبو الطيب المتنبى برغم تحامله بعد ذلك عليه :

قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه ... وخلَّت بياضاً خلفها ومآقيا

وهو القائل فيه :

فإن لم يكن إلا أبو المسك أو هُمُ ... فإنك أحلى فى فؤادى وأعذب
وكل امرئ يولى الجميل محبب ... وكل مكان ينبت العز طيب »

قال : « أو لم تسمع بقارع الهجاء وشنيع الذم ؟ » قلت : « إذاً فلنتخذ ماتنشره جرائدنا ومجلاتنا الحزبية دليلا على إفلاسنا وفنائنا ، فمتى كان يقام وزن للهجاء والتشنيع الذى يمليه الحقد والنفس الموتورة ؟ »

أما أنا فآخذ بما ذكره الذهبى[١] عن كافور إذ قال : « كان يدنى الشعراء ويجيزهم ، وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية . وكان عظيم الحرمة ، وله حجاب » ؛ ثم قال : « إنه تقدم لدى الأخشيد صاحب مصر لعقله ورأيه وسمده إلى أن صار من كبار القواد ، ثم أتابك ولده أبى القاسم أنوجور ، ووصل إلى أن زاد ملكه على ملك مولاه الأخشيد » . وتكلم على مقدرته وكفايته وحسن تدبيره فقال : « إنه كان خبيراً بالسياسة فطناً ذكياً جيد العقل داهية » ، وضرب مثلا لذلك حين قال : « إنه كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ، وكان يذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء حتى تم له الأمر » . أليس فى ذلك دليل على قوته ؟

وأذكر لك ما عثرت عليه من أن كافور كان أول من غزا ، ولازمه التوفيق فى فتح الأقاليم النوبية ، فقد هاجمها قبله أبو منصور تكين التركى هى وبرقة فى عام واحد ، ولم يتم فتحها على يديه . ولما غزاها كافور كان التوفيق حليفه ، لأن جيش المسلمين كان من السودان ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ولما غزا كافور دنقلة غدا ... بجيش كطول الأرض فى مثلها عرض
غزا الأسود السودان فى رونق الضحى ... ولما التقى الجمعان أظلمت الأرض

فهو أول من تمت الوحدة على يديه . وهو حامل لواء الإسلام والعروبة فى أراضى السودان . ولو شئت أن تعلم عن كافور وأيام كافور وأياديه البيضاء ، وأنفاسه الطاهرة ومجده وسلطانه وحسن بلائه ، فعليك بكتب التاريخ تنبئك عن عقل ودراية وحكمة وسياسة وحسن تصريف للأمور وفهم للناس وطبائعهم ، وهذه أشياء شهد له بها المعاصرون ووفوه حقه فيها . أما نحن فنرى

(١) هما مدينتان فى ولاية أضنه داخل الجمهورية التركية

(١) النجوم الزاهرة جزء رابع .

فيه رجلا عظيما من عظماء القرن الرابع الهجرى ، خدم بإخلاص مولاه الأخشيد ، وصان استقلال مصر لسنوات ، وواجهته المصاعب والمشاكل والحروب ، فتغلب عليها وخرج من مآزقها ، وهو بطل من أبطال تاريخ مصر العربية ، ولذلك تجدنى من أنصار كافور ومن المعجبين به ومن الداعين لحفظ ذكراه ، ولو كان لى من الأمر شيء ، لبحثت عن قبره ، وأقمت قبة عليه ، ثم لطلبت من أولى الأمر فى مصر والسودان أن يطلق اسمه على ميدان أو شارع بالقاهرة وأم درمان والخرطوم ، صيانة لذكره وإقراراً لفضله ، وتوكيداً لصلات مصر والسودان .

فإذا كان الأميركان من الملونين يبحثون عن صورة بوشكين الشاعر الروسى المشهور ، ويضعونها فى أحسن مكان لصلة القربى معهم لسمرة لونه ، فكيف ينكر فضل كافور وهو ملك من أعظم الملوك ؟ ولم لا يقوم السودان ويقمد له ويحتفى به وهو منه وإليه منسوب ؟

إننى يا صديقى لا أتفق معك ولا أجاريك فى قولك بأن الوطنية والكرامة تمليان حذف اسمه وسيرته وعهده من كتب التاريخ ، بل أقول : إنهما تمليان علينا نشر فضائله ومحاسنه ؛ وإنى كلما تأملت فى عصر أستاذنا أبى المسك كافور وقرأت عنه وعن أخلاقه وسيرته بين الناس ، بدت شخصيته ممتازة محبوبة عليها وقار واحترام وحشمة ، لا بأعماله السياسية وحياته العامة ، وهى ليست موضع نزاع ، بل بأدبه وتواضعه وخضوعه لأحكام الله ، وكرمه وإخلاصه لمن حوله ، ولصلاته وُدأبه على عمل الخير وإسداء المعروف ، وهى نواح إن أهملتها بعض كتب التاريخ ، فقد وجدت مبعثرة ، ولذلك رأيت أن أشير إليها .

قال ابراهيم بن اسماعيل إمام مسجد الزبير : « إن كافورا كان يداوم الجلوس بالغداة والعشى لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهجد ويمرّغ وجهه ساجداً ويقول : « اللهم لا تسلط علىّ مخلوقاً » . وكان لا يأنف من أصله ومولده ، ويحمد الله أن رفع من قدره ، وينسب ما لقى من خير إلى توفيق الله ونعمته . فقد ذكر أبو بكر الماردانى ، وكان وزيراً لكافور ولأبى منصور تكين التركى : « إن كافورا كان دائم التحدث بنعمة الله عليه ، ويذكر أيامه بالسودان ، وكيف جىء به إلى مصر وعمره أربع عشرة سنة » . وحدّث أنه كان بمدينة الفسطاط فى السوق المنسوبة لبنى حباسة طباخ يبيع الطعام ، فعبر كافور فى شبابه وطلب منه شيئاً من الطعام ، فضربه بالمغرفة على يده وهى حادة ، فوقع مغشياً عليه ، فأخذه رجل ورشّ عليه الماء ، وأواه حتى وجد العافية . قال : « فكلما عزّت عليه نفسه يذكر ما أصابه من الطباخ ، وقد يركب ويأتى إلى ذلك الزقاق ، ويسجد شكراً لله على نمائه » . وكان يفعل ذلك فى إبان ملكه ومجده وعظمته .

قلت لصاحبى وقد يكون فى ذلك بعض المبالغة من أصحاب السير ؛ ولكن ما الحكمة فى ذلك وكافور لم يعقب نسلا ولم يترك أهلا ولم تصمد دولته بعده ليتملقها الكتاب والمؤرخون ؟ وهذه ناحية أخرى تحبب إلىّ الرجل : هى فهمه للناس وعطفه عليهم وأخذهم باللين مع تعاليه عن تصديق الوقيعة وقبول الفتن . فقد ذكر ابن خلكان فى ترجمة الشريف ابن طباطبا ولا يزال قبره يزار بقرافة الإمام الشافعى : « أنه كان طاهراً كريماً فاضلا صاحب ضياع ونعمة ظاهرة وعبيد وحاشية ؛ وكان يرسل لكافور فى كل يوم جامين حلوى ورغيفاً فى منديل مختوم ، فحسده بعض الأعيان وقال لكافور « الحلو حسن فما لهذا الرغيف فإنه لا يحسن أن يقابلك به » فأرسل إليه كافور يعتذر عن قبول الرغيف ، فركب الشريف إليه وعلم أنهم قد دسوا عليه ، فلما اجتمع به قال له : « أيدك الله إنا لا ننفذ الرغيف تطاولا وتماظا ، وإنما هى صبية حسنية تعجنه بيدها وتخبزه فنرسله إليك على سبيل التبرك ، فإن كرهته قطعناه » فقال كافور : لا والله لا تقطعه ولا يكون قوتى سواه »[1] .

وكان محدثى قوياً لا يلين ، فيه عنجهية من بقايا القرون التى سبقت الإسلام والرسالة المحمدية ، فهو مصر على التفرقة بين الناس حسب ألوانهم كما قسم هتلر الناس وصنف الشعوب أصنافاً ، فقلت له إن ابن زولاق ، وهو حجة فى الموضوع ، قد اعترف لكافور فقال « إنه كان ديّناً كريماً » ، فانظر ما نقله صاحب الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة عن ابن الجلى فى تاريخه ، إذ قال :

حدثنى أبو الحسن البغدادى قال : وردت إلى مصر وأنا مع

(١) ذكر صاحب كنز الدرر ونقله صاحب النجوم الزاهرة : أن سماط كافور كان فى اليوم مائتا خروف كبار ومائة خروف رميس غير الأوز والدجاج والحمام والحلوى والشراب .

أبي وكنت دون البلوغ فى أيام كافور الأخشيدى ، وكان أبو بكر المحلى يتولى نفقة كافور ومصالحه وخواص خدمته ، فانتسجت بينه وبين أبي مودة ، فكان يأتى إلى أبي ويزوره ، فجلس فى بعض الأيام يتحدث ويتذاكر أخبار كافور ، فقال أبو بكر لأبى وأنا أسمع : إن هذا الأستاذ كافور له فى كل عيد أضحى عادة ، وهو أنه يسلم إلىَّ بغلا محملا ذهباً وورقاً وأمضى مع صاحب الشرطة ونطوف من بعد العشاء إلى آخر الليل حتى أسلم ذلك لكل من أجد اسمه فى تلك الجريدة فأطرق أبوابهم وأقول لهم هذا من عند أبي المسك كافور .

وقال أبو جعفر مسلم بن عبد الله بن طاهر العلوى النسابة : ما رأيت أكرم من كافور : كنت أسايره يوماً وهو فى موكب خفيف يريد النزهة وبين يديه عدة جنائب ، فوقعت مقرعته من يده ، ولم يرها ، فنزلت عن دابتى وأخذتها من الأرض ، فقال : أيها الشريف ، أعوذ بالله من بلوغ الغاية ، ما ظننت أن الزمان يبلّغنى حتى تفعل أنت هذا معى ، وكاد يبكى ... فقلت : أنا صنيعة الأستاذ ووليه . فلما بلغ داره ودعنى . ولما سرت التفت ، فإذا بالجنائب والبغال كلها خلفى . فقلت : ما هذا ؟ قالوا : أمر الأستاذ أن يحمل مركبه إليك بجنائبه . فأدخلته دارى ، وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار !

تلك أقاصيص موزعة مفرقة أوقمتنى الصدف عليها فى مواضع متعددة ، وهى تكشف الطريق لنا لبحث نفسية كافور ، فهذا رجل وصل إلى درجة من أعلى درجات عصره وكانت تهابه الدنيا ، فانظر إلى تواضعه وخجله ، وإلى نفسه الهادئة المطمئنة ، وقس على ذلك فقاقيع الرجال ممن نلقاهم كل يوم ، وهم لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم من الأمر شيئاً تراهم يخفون ضعفهم بالتظاهر بالقوة ، وجهلهم بتعاليهم على الناس ، وهم فى مشيتهم وغطرستهم وحديثهم وما يبدو فى وجوههم مضحكة ومهزأة للعصر الذى نعيش فيه وللعصور القادمة : « يا أيها الناس ، ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب » صدق الله العظيم (١) .

وفى ذى القعدة سنة ٣٦٢ هـ ، وهى السنة التى قدم فيها المعز لدين الله إلى القاهرة من بلاد المغرب ، ركب لكسر خليج القنطرة ، فكسر بين يديه ، ثم سار على شاطئ النيل حتى بلغ إلى بنى وائل ، ومر على سطح الجرف فى موكب عظيم ، وخلفه وجوه أهل الدولة ، ومعهم أبو جعفر أحمد بن نصر يسير فى ركابه ، ويعرفه بالمواضع التى يجتاز عليها ، وتجمعت الرعية للدعاء له ، ثم عطف على بركة الحبش ، ثم على الصحراء ، وسار على الخندق الذى حفره القائد جوهر ، ومر على قبر كافور ، وعلى قبر ابن طباطبا الحسنى ، ثم عاد إلى قصره (١) .

عثرت على هذا النص عرضاً ، فوقفت مندهشاً أمام النصوص التى تقول : بأن تابوت كافور نقل إلى القدس ودفن بها وكتب على قبره :

ما بال قبرك يا كافور منفرداً
بصحصح الموت بعد العسكر اللجب ؟
يدوس قبرك آحاد الرجال وقد
كانت أسود الشرى تخشاك فى الكتب

ودخلت بحراً يموج بالمسائل ، وكلها تحتاج لتحقيق ، وسنرى ما يكون من أمرها .

أحمد رمزي
القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

(١) ١٢ من سورة الحج .

(١) ابن زولاق فى كتاب سيرة المعز لدين الله نقله المقريزى فى الخطط لما ذكر ما كان يعمل عند فتح الخليج .

من غزل الفقهاء

للأستاذ علي الطنطاوي

قال لي شيخ من المشايخ المزمّتين ، وقد سقط إليه عدد من الرسالة ، فيه مقالة لي في الحب :

— مالك وللحب ، وأنت شيخ وأنت قاض ، وليس يليق بالشيوخ والقضاة أن يتكلموا في الحب ، أو يعرضوا للغزل ؟! إنما يليق ذلك بالشعراء ، وقد نزه الله نبيّه عن الشعر ، وترفع العلماء ، وهم ورثة الأنبياء عنه ، وصرّح الشافعي أنه يزرى بهم ؛ ولولا ذلك لكان أشعر من لبيد ...

فضحكت ، وقلت له :

— أما أقمت مرة في السَّحر ، فأحسست نسيم الليل الناعش ، وسكونه الناطق ... وجماله الفاتن ، فشعرت بعاطفة لا عهد لك بمثلها ، ولا طاقة لك على وصفها ؟

أما سمعت مرة في صفاء الليل نغمة عذبة ، من مغنٍّ حاذق قد خرجت من قلبه ، فهزت منك وتر القلب ، ومست حبّة الفؤاد ؟

أما خلوت مرة بنفسك تفكر في الماضي فتذكر أفراحه وأتراحه ، وإخوانا كانوا زينة الحياة فطواهم الثرى ، وعهداً كان ربيع العمر فتصرم الربيع ، فوجدت فراغا في نفسك ، فتلفتّ تفتش عن هذا الماضي الذي ذهب ولن يعود ؟

أما قرأت مرة قصة من قصص الحب ، أو خبرا من أخبار البطولة فأحسست بمثل النار تمشي في أعصابك ، وبمثل جناح الطير يخفق في صدرك ؟

أما رأيت في الحياة مشاهد البؤس ؟ أما أبصرت في الكون روائع الجمال ؟ فمن هو الذي يصور مشاعرك هذه ؟ من الذي يصف لذائذك النفسية وآلامك ، وبؤساك ونعماك ؟ لن يصورها اللغويون ولا الفقهاء ولا المحدثون ، ولا الأطباء ولا المهندسون . كل أولئك يعيشون مع الجسد والعقل ، محبوسين في معقلهما ، لا يسرحون في فضاء الأحلام ، ولا يوغلون في أودية القلب ، ولا يلجون عالم النفس ... فمن هم أهل القلوب ؟

إنهم الشعراء يا سيدي ، وذلك هو الشعر !

إن البشر يكدّون ويسمون ، ويسيرون في صحراء الحياة ، وقيد نواظرهم كواكب ثلاثة ، هي هدفهم وإليها المسير ، ومنها الهدى وهي السراج المنير ، وهي الحقيقة والخير والجمال ، وإن كوكب الجمال أزهلها وأبهاها ، إن خفي صاحباه عن بعض الناس فما يخفى على أحد ، وإن قصرت عن دركهما عيون فهو ملء كل عين ، والجمال بعدُ أسّ الحقائق وأصل الفضائل ، فلولا جمال الحقيقة ما طلبها العلماء ، ولولا جمال الخير ما دعا إليه المصلحون . وهل ينازع في تفضيل الجمال إنسان ؟ هل في الدنيا من يؤثر الدّمْنة المقفرة ، على الجنة المزهرة ؟ والعجوز الشوهاء على الصبية الحسناء ؟ والأسمال البالية على الحلل الغالية ؟

فكيف يكون فيها من يكره الشعر ، وهو جمال القول ، وفتنة الكلام ؟ وهو لغة القلب فمن لم يفهمه لم يكن من ذوى القلوب . وهو صورة النفس ، فمن لم يجد فيه صورته لم يكن إلا جاداً . وهو حديث الذكريات والآمال ، فمن لم يذكر ماضياً ، ولم يرج مستقبلا ، ولم يعرف من نفسه لذة ولا ألماً ، فليس بإنسان .

* * *

ومن قال لك يا سيدي إن الله نزه نبيه صلى الله عليه وسلم عن الشعر لأن الشعر قبيح ؟ إنما نفى عنه أن يكون شاعراً كمن عرف العرب من الشعراء ، وردّ عليهم قولهم : « إنه شاعر » . لأن الشاعر يأتيه الوحي من داخل نفسه ، والنبي يجيئه الوحي من السماء ، وهذا الذي لم تدركه العرب ، فقالوا قولتهم التي ردّها الله عليهم !

وأين وجدت حرمة الشعر ، أو مذمته من حيث هو كلام جميل ، يصف شعوراً نبيلا ؟ إنما يقبح إذا اشتمل على الباطل ، كما يقبح كل كلام يشتمل عليه .

ومن أين عرفت أن العلماء قد ترفعوا عنه ، والكتب مملوءة بالجيّد من أشعارهم ، في الحب والغزل ووصف النساء ؟

أو ما سمعت بأن النبي صلى الله عليه وسلم أصغى إلى كعب وهو يهدر في قصيدته التي يتغزل فيها بسعاد ... ويصفها بما لو ألقي

عليك مثله لتورعت عن سماعه ... وتصاممت عنه ، وحسبت أن التقى يمنعك منه وذهبت تلوم عليه ، وتنصح بالإقلاع عنه قائله ...

وما سعاد غداة البين إذ برزت
إلا أغنُّ غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذى ظَلم إذا ابتسمت
كأنها مَنْهل بالراح معلول
هيفاء مُقبلةً عجزاء مدبرةً   لا يشتكى قصر منها ولا طول

وأن عمر كان يتمثل بمثل ما تكره أنت ... من الشعر ، وأن ابن عباس كان يصغى إلى إمام الغزلين عمر بن أبى ربيعة ، ويروى شعره ؟ وأن الحسن البصرى كان يستشهد فى مجلس وعظه ، بقول الشاعر :

اليوم عندك دَلها وحديثها   وغداً لغيرك كفها والمعصم

وأن سعيد بن المسيب سمع مغنيا يغنى :

تضوّع مسكا بطن نعمان أن مشت   به زينب فى نسوة خفرات

فضرب برجله وقال : هذا والله مما يلذ استماعه ، ثم قال :

وليست كأخرى أوسعت جيب درعها
وأبدت بنان الكف للجمرات
وعلّت بنان المسك وحْفاً مُرَجَّلا
على مثل بدر لاح فى الظلمات
وقامت تراءى يوم جمع فأفتنت   برؤيتها من راح من عرفات

فكانوا يروْن هذا الشعر لسعيد بن المسيب !

***

ومالى أدور وأسوق لك الأخبار ، وعندنا شعراء كان شعرهم أرق من النسيم إذا سرى ، وأصفى من شعاع القمر ، وأعذب من ماء الوصال ، وهم كانوا أئمة الدين وأعلام الهدى .

هذا عروة بن أذينة الفقيه المحدث شيخ الإمام مالك يقول[1] :

ان التى زعمت فؤادك ملها   خُلقت هواك كما خلقت هوى لها
فبك الذى زعمت بها وكلاكما   يبدى لصاحبه الصبابة كلها
ويبيت بين جوانحى حبٌّ لها   لو كان تحت فراشها لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها   يوماً وقد ضَحِيَت إذن لأظلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة   شفع الفؤاد إلى الضمير فسلها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها   بلباقة فأدقها وأجلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبى   ما كان أكثرها لنا وأقلها !
فدنا فقال ، لعلها معذورة   من أجل رِقبتها، فقلت: لعلها!

هذه الأبيات التى بلغ من إعجاب الناس بها أن أبا السائب المخزومى لما سمعها حلف أنه لا يأكل بها طعاماً إلى الليل !

وهو القائل ، وهذا من أروع الشعر وأحلاه ، وهذا شعر شاعر لم ينطق بالشعر تقليدا ، وإنما قال عن شعور ، ونطق عن حب ، فما يخفى كلام المحبين :

قالت (وأبثثتها وجدى فبحت به) :
قد كنت عندى تحب الستر ، فاستتر
ألست تبصر من حولى؟ فقلت لها: غطى هواك وما ألقى على بصرى

هذا الشاعر الفقيه الذى أوقد الحب فى قلبه نارا لا يطفئها إلا الوصال :

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى   عمدت نحو سقاء الماء أبترد
هبنى بردت ببرد الماء ظاهره   فمن لحر على الأحشاء يتقد ؟ !

وهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، أحد فقهاء المدينة السبعة الذين انتهى إليهم العلم ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول فى خلافته[1] : لمجلس من عبيد الله لو كان حيا ، أحب إلى من الدنيا وما فيها . وإنى لأشترى ليلة من ليالى عبيد الله بألف دينار من بيت المال ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، تقول هذا مع شدة تحريك وشدة تحفظك ؟ قال : أين يُذهب بكم ؟ والله إنى لأعود برأيه ونصيحته ومشورته على بيت المال بألوف وألوف . وكان الزهرى يقول : سمعت من العلم شيئا كثيرا ، فظننت أنى اكتفيت حتى لقيت عبيد الله فإذا كأنى ليس فى يدى شىء !

وهو مع ذلك الشاعر الغزل الذى يقول :

شققت القلب ثم ذررت فيه   هواك فليم فالتام الفُطور
تغلغل حب عثمة فى فؤادى   فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب   ولا حزن ولم يبلغ سرور

أفسمعت بأعمق من هذا الحب وأعلق منه بالقلب ؟ ولم يكن يخفى ما فى قلبه ، بل كان إذا لقيه ابن المسيب فسأله : أأنت الفقيه الشاعر ؟ يقول : « لا بد للمصدور من أن ينفث » فلا

(١) الأغانى الجزء ٢١ . ٢٤ . ٢٦

(١) ابن خلكان فى الوفيات .

ينكر عليه ابن المسيب . وهو القائل [١] :

كتمتَ الهوى حتى أضر بك الكتم
ولامك أقوام ولومهم ظلم

ونم عليك الكاشحون وقبلهم
عليك الهوى قد نم لو نفع النم

وزادك إغراء بها طول بخلها
عليك وأبلى لحم أعظمك الهم

فأصبحت كالنهدى إذ مات حسرة
على إثر هند أو كمن سقى السم [٢]

ألا من لنفس لا تموت فينقضى
شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

تجنبت إتيان الحبيب تأثماً
ألا إن هجران الحبيب هو الاثم

فذق هجرها إن كنت تزعم أنه
رشاد ألا يا ربما كذب الزعم

ألا إن هذا هو الشعر !

البقية فى العدد القادم

على الطنطاوى

(١) أمالى القالى .

(٢) قال البكرى فى اللآلى ، هذا من القلوب كخرق الثوب المسمار وترجمة النهدى هذا فى الأغانى (١٩) .

طبيعة البـــلاد العربية (*)

للدكتور جواد على

على الرغم من الموقع الممتاز الذى تشغله البلاد العربية فى وجه الكرة الأرضية ، وعلى الرغم من الأهمية العسكرية التى تتمتع بها هذه البلاد باعتبارها قنطرة عظيمة تصل بين قارات ثلاث هى قارات العالم القديم ، فإنها كانت ولا تزال قليلة السكان جداً بالنسبة إلى سعة مساحتها واتساع أرضها ، وفيها بقعة كبيرة تكاد تكون خالية من السكان تتغلب عليها الطبيعة الصحراوية ، هى البقعة المعروفة بالربع الخالى ، وحولها منطقة واسعة قليلة السكان كذلك . ويغلب على هذه المناطق الجفاف والتغير السريع فى درجات الحرارة بين الليل والنهار تغيراً يؤثر فى طبيعة السكان تأثيراً كبيراً ، فيصعب على الإنسان والأجسام الحية تحمله .

على أن فى الروايات اليونانية القديمة وفى المصادر السريانية والعربية ما يشير إلى أن بعض هذه المناطق الصحراوية الجرداء فى الوقت الحاضر لم تكن فى السابق على ما هى عليه الآن ، بل كانت مخصبة معشبة كثيرة الكلأ والماء ، معتدلة نوعاً ما فى درجات الحرارة . ولم يكن هنالك بطبيعة الحال فروق كبيرة بين الحرارة والبرودة فى الليل والنهار ، وأنها كانت عامرة توجد فيها المدن المأهولة والقرى .

وتلاحظ فى الوقت الحاضر آثار أنهار وعيون ونبات وواحات لا بد وأنها كانت مأهولة معمورة ، ثم تغير الطقس فيها وحدثت فيها كوارث طبيعية دعت إلى هجرة سكانها عنها وإلى تحولها إلى تربة صحراوية . ولما جاء الإسلام كانت هذه الأماكن نسياً منسياً ، فتصور الناس أنها من أعمال قوم عاد أو من أعمال الجن [١] .

وقد عرف أكثر الرواة العرب مثل تلك الانقلابات الطبيعية والتقلبات الجيولوجية ، فأشاروا إليها فقالوا إنما حدث ما حدث انتقاماً من تلك الأقوام القديمة والشعوب التى أجابت داعى الهوى وكفرت بأنعم الله فأذاقها الله سوء العذاب [٢] .

وفى القرآن الكريم — وهو أصدق مرجع بين أيدينا — إشارات كثيرة إلى تلك الأقوام التى عاشت فى الأيام الخالية فى شبه جزيرة العرب تؤيد هذا الرأى وتقويه . ففى كتاب الله آيات مفصلة عن عاد وإرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها البلاد [٣] وقوم ثمود الذين جابوا الصخر بالواد [٤] . وعن الأيكة [٥] . وردت عرضاً على سبيل القصة والوعظة .

وقد عرض المفسرون لهذه الآيات وأطنبوا فى وصف تلك الأماكن والمحلات ، وذكروا شيئاً مما كان قد رسخ فى

(*) من كتاب « العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد على لم يطبع بعد .

(١) mortizy arabia p, 25 . المسعودى ج ١ مروج ص ٩٤ (طبعة أوربا) . النقائض ٢٨٩ ، ٤٠٢ .

(٢) mortizy p, 28

(٣) القرآن الكريم سورة ٨٩ آية ٧

(٤) القرآن الكريم سورة ١١ آية ٩٦ وسورة ٢٢ آية ٤٢ وفى مواضع أخرى .

(٥) القرآن الكريم سورة ١٥ آية ٧٨ وسورة ٢٦ آية ١٧٦ سورة ٣٨ آية ١٣ سورة ٥٠ آية ١٤ .

تخيلتهم عن تلك الأقوام . وهى صورة وإن كان رواء الوضع يتغلب عليها ، ومادة الخيال فيها خصبة ، إلا أنها صورة مهما قيل فيها فإنها مستمدة من واقع قديم تؤيده الآثار والتجارب العلمية الحديثة .

وكانت عناية الأهالى بالسدود عظيمة على ما يظهر من آثارها فى هذا اليوم . فعلى تلك السدود التى كانت تحافظ على مياه الأمطار أو مياه الأنهار والعيون كانت تتوقف حياة الأرض والسكان . والظاهر أن الناس فى ذلك الوقت كانوا على علم بأصول خزن المياه كالذى نشاهده من آثار سد مأرب ، ومن آثار السدود الأخرى فى اليمن أو قرب يثرب فى الحجاز (المدينة) وفى أرض بنى سليم . وكانت تعرف بأسماء مختلفة تختلف باختلاف القبائل ولهجاتها فتعرف باسم « مسكّ للماء » أو « مسدّ » أو سد أو مساك للماء[1].

ولم تخل البلاد العربية الشمالية من السدود[2]. وقد استمر العرب على إنشاء السدود حتى بعد تدهورهم فى العصور الجاهلية التى سبقت الإسلام واتصلت به بل حتى فى العصور الإسلامية كالعصر الأموى[3].

وامتازت منطقة يثرب بكثرة ما أنشىء فيها من النواظم والسدود والترع الفنية . ففى وادى بطحان ، وهو واد من أودية المدينة سد للماء . وفى وادى العقيق سد آخر عند جبل شوران[4] وثالث فى وادى محزول وقد كان حتى زمن الرسول[5]. ثم سد رابع هو سد معونة قرب الأرحاضية بجنوب المدينة[6] ، وخامس فى وادى أظم[7].

وحتى نجد لم تكن لتخلو من هذه السدود[8]. وقد وجدت السدود بكثرة فى جنوب الحجاز[9] ، وفى أراضى قبائل هذيل

(١) moritzy p, 27 . البكرى ٤٦٣ ياقوت جـ ٣ ص ٦٤
(٢) moritzy p, 27
(٣) نفس المصدر أيضاً البكرى ٤٦٢ ياقوت جـ ٢ ص ٢٤٩ .
(٤) moritzy p, 27 . البكرى ص ٤٦٢ ياقوت جـ ٢ ص ٢٤٩
(٥) moritzy p, 27 . البلاذرى فتوح ، ١٠ ، ١٣ .
(٦) moritzy p, 27 . ابن سعد ٢ ، ٢١ .
(٧) moritzy p, 27 . ياقوت جـ ١ ص ٣٠٥ .
(٨) moritzy p, 27 . البكرى ٢٠٥ ياقوت جـ ٣ ص ٧٣٨
(٩) moritzy p, 27

وبنى سليم . وقد حافظت أراضى بنى سليم على خصبها وإنباتها حتى العصر العباسى . ولما أهمل أمرها فى هذا العهد بسبب الفتن والكوارث السياسية تحولت منذ هذا الوقت إلى أرض قاحلة صحراوية غادرها الناس وعافوها حتى غدت اليوم من المناطق المظلمة القفرة التى لا تزار[1].

وقد اشتهرت بنو سليم على ما يظهر بنشاطها وبذكائها الخارق ، فابتكرت ولا شك طرقاً فنية لاستنباط الماء وخزنه إلى وقت الحاجة . فلما أراد الحجاج حفر آبار على طريق الحج لم يجد من يحسن حفر الآبار واستخراج الماء غير رجال هذه القبيلة[2] .

وطبيعى أن يكون للعرب علم خاص بطرق استنباط الماء وإقامة الحواجز ، وكيفية حفر الآبار والتعرف على نوع الأراضى التى يمكن استخراج الماء منها ، وإلا فكيف يعقل أن تنشأ هذه الحواجز وأن تحفر تلك الآبار لو لم يكن لهم علم بذلك ؟ ثم إن النصوص اليمانية التى عثر عليها حتى الآن وهى قليلة تؤيد هذا الرأى وتدعمه[3].

وقد انتقل هذا الفن إلى المسلمين فظهر نفر من العلماء فى العصرين الأموى والعباسى نظموا صرف المياه وكيفية السيطرة عليها وتوزيعه . وألف بعضهم فى « كتب المياه » وفى إحياء الأراضى « الموات » وقد أضافوا إلى معلوماتهم العربية الخالصة ما أخذوه عن الأعاجم من آراء ونظريات وما قرأوه فى كتبهم من أبحاث[4].

على أننا نسمع فى نفس الوقت أصواتاً ترتفع من جوف البلاد العربية ومن مختلف الأنحاء تشكو الجفاف وتتألم من تراكم الأتربة فى مجارى الأنهار . ومن جفاف مياه الواحات فجأة ومن موت النباتات والأشجار وتحول الأرض إلى صحار رملية ، وقد استمرت تلك الشكاوى بدون انقطاع حتى القرن التاسع عشر .

وقد تكون من بين أسباب هذا الجفاف وتحول المياه أسباب

(١) البكرى ٤٦٧ ياقوت جـ ١ ص ٨٦٠ جـ ٢ ص ٨٠٥ .
moritzy p, 27
(٢) البكرى ص ٢٠٧ moritzy p, 28
(٣) moritzy p, 26
(٤) moritzy p, 26 . راجع أيضاً الفهرست لابن النديم (الأوربية) ٢٦٩ ، وص ٥٥ .

سياسية نشأت عن تضعضع مركز الخلافة والثورات والانقلابات العسكرية الكثيرة التي كانت تدبرها الأسر الشريفة أو أصحاب القوة والبسطة من الأعاجم وأصحاب العساكر والأتباع . فلم يعد في وسع الحكومة الاهتمام بشؤون الزراعة والري وسائر الشؤون الأخرى . وقد تكون عوامل طبيعية وقتية أو طوارىء طبيعية فجائية سببت انحباس الأمطار وإلى غور المياه إلى الأعماق . على كل فهي كوارث مزعجة حولت تلك الأماكن النبتة المأهولة إلى أماكن صحراوية رملية لا يمكن لأحد النزول بها لعدم ملاءمتها لشروط الحياة[١].

وقد خلقت هذه الكوارث الطبيعية والتقلبات الجيولوجية التي حدثت في الأزمنة التي سبقت الإسلام قصصاً مختلفة وحكايات توارثها الناس جيلا بعد جيل عن هلاك تلك الأقوام وتبدل وجه المعمورة وتحول الأرض المأنوسة إلى أرض موحشة . وقد تردد صداها في الكتب العربية ؛ ففي كتب الأدب والتاريخ سيل من هذه الأخبار عن عاد وثمود وطسم وجديس ووبار[٢].

تكون الكوارث الطبيعية في بعض الأوقات على صورة انحباس مياه الأمطار مدة طويلة مقرونة برياح شديدة جافة حادة تحرق المزروعات ، وتجفف الأرض . وقد يعقب ذلك هزات أرضية لا تترك شيئاً في تلك البقعة التي تتحول عندئذ إلى صحراء جرداء[٣] يتركها سكانها إلى منطقة أخرى تصلح للزراعة والرعي والعيش .

يقول المستشرق موريتس لا بد وأن تكون هنالك حقيقة تاريخية فيما يروى عن هلاك قوم عاد وثمود . فإذا ما عرفنا أن منطقة الحجر كانت منطقة ثمود ، وأن هذه المنطقة منطقة بركانية كثيراً ما كانت تثور وتلق بحممها على ماجاورها وأن «الحرات» هي فوهات تلك البراكين وأماكن حممها عرفنا لِمَ هلكت ثمود وزالت معظم آثارها من عالم الوجود[٤].

(١) moritzy p, 28 .

(٢) نفس المصدر ص ٢٨ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) moritzy p, 28 .

والحرّات هي مناطق بركانية خمدت براكينها وبقيت حممها وموادها التي كانت تقذفها ، وقد بردت منذ مدة قبل ظهور الإسلام ، إلا أن الدخان كان لا يزال يخرج من بعضها حتى في العصور الإسلامية . فقد ذكروا أن النيران كانت تخرج من حرة النار في جنوب شرق المدينة ، وكانت تشاهد في عهد الخليفة عمر بن الخطاب[١]. وتحدث الناس عن نشاط بركاني ظهر فجأة في الحرة الكبرى التي تقع على مقربة من المدينة سنة ١٢٥٦ م . وقد دام ذلك عدة أسابيع ، وذكروا أن حمم هذه الحرة أخذت تسيل (Lave) وتزحف نحو المدينة حتى أصبحت على مسافة كيلو مترات قليلة من المدينة التي لم تنج منه إلا بمعجزة[٢].

ولم نعد نسمع بحوادث بركانية مهمة منذ سنة ١٢٥٣ للميلاد في أكثر أنحاء شبه جزيرة العرب غير ما ذكرناه آنفاً . ففي هذه السنة حدث انفجار بركاني عظيم في منطقة عدن ثم خفت صوت البراكين منذ ذلك الحين ولم نعد نسمع بحوادث حرّات تخرب وتدمر كما كانت تفعل في السابق . ومعنى هذا أن تطوراً جيولوجياً عظيماً حدث في هذه المنطقة بدون شك[٣] .

وقد بحث العلماء في طبيعة البلاد العربية من حيث الوجهة الجيولوجية ورأوا أن هذه البلاد قد جابهت عدة انقلابات وتطورات أرضية حدثت فيها منذ العصور الجيولوجية حتى الآن . ورأى الجوابون آثاراً صدفية ومحاراً في الربع الخالي استدلوا منه على أن هذه المنطقة كانت مغطاة بالمياه ويجوز أنها كانت تحت مياه البحر[٤].

وبنى المستشرقون على هذه الفرضيات العلمية نظرياتهم عن الأصل السامي وعن موطن الأصل السامي وهجرات الساميين . كما بحثوا عن موطن العرب الشماليين ، ووطنهم الأصلي هل كان

(١) moritzy p, 13 الطبري ج ١ ص ٢٩٨٢ (أوربية) .

(٢) Wusteufeld. Ge, medina moritzn p, 14 p, 18 ابن إياس ١ ، ٩٤ .

(٣) moritzy p, 14

(٤) راجع ما كتبه الرحالة الانكليزي برتام توماس . ودوتي وفلبي وغيرهم عن وصف تربة جزيرة العرب .

في اليمن أو في شمال اليمن، وهل كانت الكوارث الطبيعية هي العوامل الأساسية في الهجرة أو عوامل أخرى(١).

تتحدث الكتب عن حادثة انفجار سد مأرب وكيف أن هذا الانفجار سبب جفاف منطقة كبيرة من أرض اليمن كانت تتغذى منه. وكيف تمزق الناس أيدي سبأ وكيف هاجرت القبائل من الجنوب نحو الشمال.

وقد أدى ذلك الجفاف والتحول إلى تبدي القبائل المستقرة وتنقلها من مكان إلى مكان على سنة الأعراب. وهي ظاهرة تحدث كثيراً في شبه الجزيرة، فتنتقل على أثرها العشائر المتحضرة إلى البادية حيث تتخذ عيشة البدو الرحل. وقد حدث مثل هذا التطور في العصور الإسلامية أيضا ولاسيما في الأوقات التي تردت فيها الحالة السياسية وضعف فيها نفوذ الحكومة فلم يعد في إمكانها صيانة الأمن ولا السيطرة على النظم الاقتصادية؛ فكانت القبائل المتحضرة أو النصف متحضرة تضطر لحماية نفسها إلى الالتجاء إلى الصحراء حيث لا تصل إليها لهيب الحروب السياسية والثورات وحيث لا تضطر إلى الاشتراك في حروب لا نفع لها منها ولا ضرر.

ويشاهد السواح في الوقت الحاضر آثار بيوت ومنازل في أمكنة قاحلة رملية لا يمكن أن يستقر بها الإنسان في مثل هذه الظروف بأي حال من الأحوال. وقد كانت مأهولة فيما مضى كما يظهر ذلك من هذه الآثار. فكيف حل فيها هذا الخراب وحولها هذا التحول!

وفي المصادر اليونانية أسماء مدن وقرى رآها الكتبة اليونانيون وحلوا بها وقد أعجب بها هؤلاء. إلا أنها اندثرت فيما بعد ولم يبق منها أي أثر حتى عند ظهور الرسول الكريم. وفي المصادر العربية مثل هذه الأسماء أيضاً زالت من عالم الوجود. وقد أنشأ المسلمون عدداً من المدن والقرى لم يبق منها اليوم أي أثر. وقد حدث مثل هذا الحادث في العصور الحديثة كذلك(٢).

إن الجفاف هو أعظم عدو هدد البلاد العربية وحارب الحضارة والعمران في شبه جزيرة العرب. وهو الذي حول الجزيرة العربية إلى صحار رملية لا تصلح للانبات ولا للسكنى. وللجفاف عوامل مساعدة هي الشمس والتغير السريع في درجات الحرارة وهبوب الرياح وتبدل مجاري المياه(١).

وقد بحث عن هذا العامل العالم المستشرق كيتاني فتوصل إلى هذه النتيجة، وهي أن جو بلاد العرب قد تغير وتبدل، ولما حل به الجفاف لم يعد في إمكان الإنسان ولا الأجسام الحية البقاء. فتركت تلك الأراضي التي تحولت إلى صحراء مقفرة(٢).

والظاهر أن جو بلاد العرب كان مشبعاً في الأزمنة القديمة التي سبقت الإسلام بالرطوبة وكانت الأرض مخصبة منبتة لوجود الماء ثم جف الجو وتوسعت منطقة الجفاف هذه وارتحل عنها السكان(٣).

جواد علي

---

(١) راجع أبحاث المستشرقين في الهجرة مثل غويدى وكيتاني وبيكر راجع أيضاً المقتطف جـ ٢ مجلد ١٠٥ تاريخ يولية ١٩٤٤ ص ١٢١.

(٢) كما حدث في تبوك عام ١٨٨١ م راجع moritzy p, 30

---

(١) نفس المصدر ص ٣١.

(٢) Leond coetani annali 11 l'arabia nello storia del movdo 16 Jan 1907 Becker vol 1 p,291

(٣) moritzy p, 36 .

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٥ —



وكان تشابل عنيداً ضيق الصدر ، وكانت وظيفته تقتضيه ألا يتساهل فيما كلفته به إدارة الكلية ، ولم يكن في وسعه أن يتغاضى عن تمرد ذلك الطالب وإلا تعرض لمؤاخذة القائمين بالأمر ، فما يحب هؤلاء أن تشيع العدوى في بقية الطلاب ؛ لهذا لم يكن بد من معاقبة جون ملتن على في ذلك رادعاً له وعبرة لغيره .

وعوقب الفتى بإبعاده من الكلية إلى حين ؛ وقيل إنه عوقب بالضرب إلى جانب ذلك ، وإن كان أكثر المترجمين له ينكرون ذلك أو يستبعدونه ؛ على أن الضرب في ذاته يومئذ كان أمراً يقع في الكلية ، فلم تكن العقوبة البدنية محرمة حتى في الكلية .

وقضى ملتن فترة النفي في لندن غير آبه بما حدث ؛ يظهر في كل حين عدم مبالاته ، فلن تنال منه قسوة مدرس يتجنى عليه ، كما ذكر في بعض رسائله إلى « ديوداتي » أحد خلانه في مدرسة سنت بول ؛ وإنه ليفضي إلى ديوداتي أنه جد سعيد بإبعاده عن كمبردج فما يطيب بها المقام لرهط أبولو ؛ وأنه يستمتع بفراغه فيغشى المسارح كثيراً ، ويقرأ من الكتب ما يحب غير مقيد بقيود تشابل ؛ وأنه يسرح الطرف في شوارع المدينة إذ يذرعها جيئة وذهابا ، ويمد عينيه إلى حسان لندن وقد لُحْن له بعد أيامه الجافة في كمبردج أروع مما كن حسناً وأشد فتنة ، حتى إنه ليرى من الحكمة أن يبادر بالرحيل قبل أن تمسه جراح كيوبيد .

وتكشف لنا رسائله المنظومة والمنثورة إلى صاحبه عن بعض نوازع نفسه ، فهو يحب المسرح ويكثر غشيانه ؛ ولن يفعل ذلك متزمت يرى من أدلة الاستقامة أن يحرم على نفسه زينة الله التي أخرج لعباده ؛ وهو يمد عينيه إلى الغيد ولكنه هنا يخشى الغواية فيطلب النجاة ؛ وكان حريا أن يقع في حبالهن وأن يقعن في حباله بما توفر له من الجمال والوجاهة وأناقة الملبس ورشاقة الجسم ، ولكنه حريص على عفته متمسك بطهره ، تهفو إلى الجمال روحه إلا أنه يحلق ويأبى أن يرد ...

وعاد ملتن إلى الكلية ، وقد انقضى أمر النفي ؛ ولكنه لم يعد إلى تشابل فقد نقل إلى غيره ، وهو إجراء له مغزاه ، إذ لم يكن مثل هذا النقل بالعمل المعتاد في تلك الأيام ، ومنه يفهم أن القائمين على أمر الكلية يحملون تشابل شيئاً من اللوم .

ولم يفل النفي حدته ولا أوهن نشاطه ولا أذل كبرياءه ؛ وعادت نفسه الحرة تنشد الاصلاح ، وانطلق لسانه الفصيح يندد بما يرى من عيوب أيا كان أصحابها ؛ فلا تنقطع له شكوى ، ولا يفتر له نقد .

ونال أقرانه شيء غير قليل من نقده ؛ وكانوا أحرياء إلا قليلا منهم ، ألا يرتاحوا إليه ، وإن أعجبهم كثير من خصاله وراقهم شخصه ، فأن تمسكه بالفضيلة وتشدده في الطهر والعفة هو في ذاته تأنيب صامت لما يظهرون من نقائص ، ناهيك بما يقول في كل فرصة ، وبما يرسله كل آونة من عبارات التهكم أو نظرات الازدراء . وقف يخطب ذات مرة فقال « كيف آمل أن أجد فيكم الرغبة إلى الخير وأنا أرى في حفل عظيم كهذا الحفل وجوهاً تنطق بالمداوة يكاد يبلغ عددها عدد ما هنا من رؤوس » .

وكان جزاؤه على ذلك العنت من الكثير من طلاب الكلية ، فأخذوا على طريقة الطلاب يعابثونه ويهوشون عليه ويلاقونه أينما تكلم بشغبهم وزياطهم ، ويسخرون منه كما سخر منهم ، وجعلوا عفته موضعاً لاستهزائهم به ، وكانوا قد أطلقوا عليه من

قبل إسم « السيدة » لما رأوا من رقته وظرفه ودماثته ، فأخذوا الآن يميدون هذه التسمية فى موضع الأعنات والاستهزاء ، فاذا سأل أحدهم صاحبه عنه قال هل رأيت سيدة الكلية ، أوهل رأيت سيدة كريست ، ويقصدون أن يسموه هذا وهو على مقربة منهم ليغيظوه ، فيكظم غيظه ويحاول أن يغيظهم بترفعه عنهم وازدرائه إيام .

ولم يأبه ملتن بما يقولون ؛ ففيه على رقة حاشيته صبر على النضال ، يلذ له الأذى فى سبيل إعلان رأيه والدفاع عن مبدئه ، ولذلك نراه ينهض ذات مرة خطيباً ، فيشير فى خطابه إلى هذه التسمية ، فيقول متهكما إنه يعتقد أن ليس مردها إلى حسن وجهه وقصر قامته وجمال هيكله فحسب ، ولكن إلى طهره كذلك ورقة حاشيته ودماثته وحسن سلوكه ؛ ثم يتساءل فى ازدراء عما إذا كان يقصر اسم الرجولة على من كانت لهم القدرة أن يعبوا أقداحا كبيرة من الخمر ، أو على الفلاحين الذين غلظت أيديهم وجمدت من أثر المحراث ، أوعلى من يبرهنون على رجولتهم بالعربدة والفجور والفسوق ؟ ... ويستخذى الجميع أمام حماسته وشجاعته ورباطة جأشه .

ولا يفوته أن يقارن بين نفسه وبين من اتهموا قبله من النابهين الأعلام بمثل ما اتهم به ، قائلا إن دعوستين نفسه لم ينج من اتهام أعدائه إياه بالنقص فى رجولته !

والحق أن مرد هذه التسمية لم يكن إلى ضعف فيه ولا إلى خور ، فقد كان منذ يفاعته شجاع القلب والرأى ، ولسوف يقيم الدليل فى مستقبل أيامه على أنه ماحمل القلم يوما أشجع منه ؛ وكان فى الكلية لا يهمل المران على استعمال سيفه يوماً ؛ وكان لا يرهب التحدى ، ولا يحب أن يصانع ذا غاظة أو يتواضع لذى كبرة ، وإن كان فى غير ذلك من المواقف جم الأدب مرموق الوداعة ...

وما سماه أقرانه هذا الاسم أول الأمر إلا لأنهم أساءوا فهم وداعته ورقة حاشيته ، ثم عادوا يرددونه رغبة منهم فى إغاظته وإمعانا فى إعناته ، ولا يجد الشباب عادة فى الزراية على من لا يتابعهم إلى ما يحبون من العبث واللهو الخشن أنكى من نعته بالأنوثة .

وكان مرد عفته واعتصامه بالفضيلة إلى معنى طريف يضاف إلى وازع الدين وداعى الخلق ؛ وذلك أنه كان يرى أن الشاعر الذى يعد نفسه لرسالة سامية ، ينبغى قبل كل شىء أن يكون أهلا لما يستشرف له ، ولن يكون لذلك أهلا إلا إذا سمت نفسه وسمت من الأوضار ، واتصلت فى كل متجه بالمثل الأعلى لاتتخلف قط عنه ، أو على حد تعبيره ينبغى أن يكون هو قصيدة سامية .

ولقد نجح ملتن نجاحا عظيما فى ضبط نفسه وكبح جماحها ، على الرغم من توقد عاطفته وشاعرية روحه ، وتفهمه أسرار الجمال ، وتفطنه إلى موطن الفتنة فى دنيا الطبيعة وفى دنيا الناس ، هذا إلى ما اتصف به من فراهة الجمال وروعة الشباب ؛ ولذلك فأن سيطرته على نفسه مع هذا أعظم من أن تكون نجاحا ، فأنها تشبه أن تكون معجزة .

وحق لهذا الشاب أن يفخر بقهر نفسه ، أو على الأصح بقهر شهوات نفسه ، فقد أطلق نفسه على سجيتها بعد إذ جنبها مزالق الضلال ومهاوى الفتنة لتنطلق حرة فى مسارح الجمال ومواطن الرأى ...

وكان ملتن يؤمن بأن من يسمو بنفسه لا بد أن تواتيه قوة خارقة على التعبير عما يريد من معانى السمو ، وبقدر ما يكون من طهر نفسه يكون ما يتوافى له من البيان فيما ينهض لبلوغه من معارج القول

وإلى جانب ذلك كان ملتن كثير الذهاب بنفسه ، يعتقد أنه فوق غيره فى الذكاء والعلم ، يتداخله منذ صغره شعور قوى بتفوقه وامتيازه ، وهو نوع من الاعتداد بالنفس حرى أن يسمى الكبرياء العقلية ، جعل ملتن الشاعر الشاب يؤمن بفكرة هى تغليب العقل على العاطفة ، وهذه هى الحكمة ، ثم يأخذ نفسه من غير هوادة بما تقتضيه منه الفكرة ، فلا ينقاد لعواطفه كيما يعيش حكيما معتصما بالزهد والعفة

وإنه ليعتقد أنه خلق لعظيمة من العظائم فى دنيا الشعر ، وأن الزمن يهيئه فيعزله عن الناس ويرفعه فوقهم درجات ليتسنى له أن يأتى بما لا يستطيعون أن يأتوا به ، وكأن ولوعه بالأدب وشغفه بالبيان واستمساكه بالفضيلة ، كل ذلك إرهاص يكون بعده الإعجاز !

ولم تصرف ملتن عنايته بالأدب والشعر عما فرضت عليه الكلية من دروس . كذلك لم تصرفه عنها كراهته إياها ودعوته القائمين بالأمر إلى إصلاحها ، وتوجيه المطاعن إليها ، فهى أمر لا بد منه إذا شاء أن يظفر بالأجازة الجامعية ؛ وهو منذ صغره دؤوب على العمل صبور جليد ، فما ينوء اليوم بأن يجمع بين دروسه الرسمية ومتعة نفسه من الأدب والشعر وغيرهما مما لا يدخل فى محيط الدروس المقررة .

ويشهد أكثر القائمين على أمر الكلية أنه طالب مجد في عمله، نشط في طلب المزيد من العلم، يحب أن يحيط بما يدرس إحاطة تامة، ولولا نزعته الاستقلالية ونفوره من القيود ورغبته أن يختار الوقت الذي يحب لينجز ما كلف من عمل، ما شكا منه أحد، ولا كان بينه وبين تشابل عريفه الأول ما كان من شحناء وتنابذ.

ولم يتخلف ملتن عن أقرانه على الرغم من فترة إبعاده عن الكلية، فحصل عند نهاية الأجل المقرر للدراسة الأولى على درجته العلمية الأولى، وكان اللاهوت هو العلم الأساسي الذي اختار من أول الأمر أن يمتحن فيه، ويحصل على درجته، فدرسه ودرس ما يتصل به أو يتفرع منه من معرفة.

ولئن درس اللاهوت على عسره دراسة جد، واستوعب ما يحيط به، فإن قلبه كان يجد العزاء في مجال آخر محبب إليه، وأي مجال أحب إليه من الشعر وأنغامه وأحلامه؟ وهل يشغله عنه شاغل مهما جل، وهو من افتتن به وظن أنه خلق له منذ سن العاشرة؟ لذلك كان يعمد إلى قيثارته يغني عليها أناشيده كلما نفض من اللاهوت يده!

ففي أول سنة له في الكلية، وقد دخل في سنته الثامنة عشرة، نظم الفتى باللاتينية — أول ما نظم — قصائد ست ثم نظم واحدة بالإنجليزية، ولعله اختار اللاتينية لأنها لغة أوفيد، وهو به متعلق مشغوف منذ صغره؛ وكانت معظم أشعاره اللاتينية مراثي في مناسبات على نحو ما يفعل عادة من يستطيع النظم من الطلاب؛ ولكن طموح ملتن وثقته في نفسه ألقيا في روعه أنه شاعر حقاً، وأنه لا يتكلف النظم كما يتكلفه غيره، وأنه ما يسطر على القرطاس شيئاً إلا استحق أن يعيش وأن يشيع في الأدباء!

ولكن الذين كتبوا تاريخ حياته، ممن لهم علم باللاتينية، يرون التقليد في هذه الباكورة يغلب على الأصالة. وكان ملتن يقلد أوفيد، وقد اتجه بقلبه وخياله إليه، كما يصنع الأفراخ النواهض من الشعراء أن يتأثر كل منهم في صدر شبابه بواحد ممن حلقوا قبلهم في سماء الشعر!

وكانت القصيدة الإنجليزية كذلك مرثية بكى بها الشاعر الشاب طفلة من ذوي قرباه، وعنوانها «في موت طفلة جميلة أودت بها سعلة». ونلمس في هذه المرثية خصائص ملتن الأولى في الشعر: فموسيقاه حلوة، وألفاظه تنساب في يسر وإشراق، وإن لها في السمع لجرساً ساحراً جميلا ... وهو كثير الإشارة إلى الميثولوجيا الإغريقية والمسيحية، يكثر من ذكر الآلهة؛ وهو يأتي بالصفة تتداعى بها إلى الذهن المعاني المتصلة بما يصف في قوة ومهارة، فتوحي بذلك الأبيات القليلة معاني كثيرة، بل لقد يحمل للكلمة الواحدة معنى واسعاً بما يسبقها أو يلحقها به من الكلام، فيرمز للموت هنا مثلا بالشتاء، وقد ناجى الطفلة في مستهل القصيدة باسم زهرة من أشهر زهرات الربيع يكفي النطق بها لتذكر الأنفس الربيع وموسمه الحافل؛ ثم يعود فيتحدث عن الطفلة كأنها ملاك عاد إلى أفقه، وقد اتخذ صورة الإنسان لحظة، ليُري الناس كيف يحتقرون هذه الأرض، وكيف تهفو إلى السماوات أرواحهم، ويسأل أمها تبعاً لذلك ألا تحزن، فما فقدت شيئاً ... !

وبعد ذلك بسنتين ينظم باللاتينية أولى غرامياته، وفيها يذكر أن عينيه وقعتا في سرب من حسان لندن على فتاة استأثرت بلبه ونفذت نظرتها إلى أعماق قلبه ... فتاة هي فينوس حسناً وشكلا ... وسرعان ما جرحه كيوبيد بها في ألف موضع من جسمه ... ثم غابت عن بصره وتولت وقد شغفته حباً... فأحس كأنه يحترق وكأن اللهب يحتويه ... ولم يرها بعد ذلك أبداً، وأصبح بعدها كغيره من العشاق ينعم بشقاء حلو!

وأردف هذه القصيدة بأخرى لاتينية غرامية كذلك يصف فيها الحب، ولا يشير فيها إلى موقف بعينه كما فعل في سالفتها، ولكن ... إلى الهوى وأسقامه وأحلامه ...

ويحرص ملتن دائماً أن يسمو بحبه، فما تنم كلماته ولا إشاراته عما يستهجن من قول أو فعل، وما يصدر عن مثله إلا كل سام نبيل، وقد جعل سمو النفس وطهرها كما رأينا وسيلة إلى سمو التعبير؛ على أنه يفصح أحياناً عما يظهره أنه يحس شيئاً من المرح إذ يصف هيام الحب وأحلامه ومتعه؛ ولعله أراد بذلك أن يوحي إلى لداته أنه يتخفف من تزمته، أو مما يأخذونه على أنه تزمت منه، وما هو فيما يرى إلا التوقر والاحتشام والجد؛ ولقد أشار في بعض خطبه إلى شيء من هذا، فجهر بأنه اليوم يحبذ المرح والسرور، وإن كان قصير الباع في التندر والفاكهة؛ ولعله كذلك يجد في هذا المرح الذي يصفُ والذي يحبذ، وفي هذا الحب الذي يصوغ ألحانه، ما يرد به على من أطلقوا عليه ذلك الإسم السخيف الذي ضايقه بعض الثقلاء به!

(يتبع) الخفيف

فلسطينيات :

أولجـــا رومانوف

للأستاذ نجاتي صـــدقي

يعرفها الناس باسم « السيدة السكوبية » ، وهي تجيد خمس لغات أوربية ، كما أنها تتحدث قليلا بالعربية العامية ، ويعجبها أن تعرب عن أفكارها أحياناً باللفظ العربي الفصيح فتقول مثلا: « يغلب على ظني أن الأمر كذا وكذا » و « ثق يا عزيزي بأنني متمسكة برأيي » ، و « أجل » ، و « ربما » ...

والسيدة السكوبية هذه تقع في حدود الخمسين من عمرها ، قصيرة القامة ، نحيفة الجسم ، عظيمة الهيئة ، مجعدة الوجه ، غائرة العينين ، مصفرة الأسنان ، وبعضها قد نخره السوس ، لكنها تحتفظ بشعر أشقر طويل تضفره وتعقده حول رأسها ، وهي تحاول دائماً أن تكون ضحوكا لعوباً ، ميالة إلى تقليد الفتيات اليافعات الطارقات حديثاً أبواب الحياة...

وتسكن هـذه السيدة في دير الأرز الواقع بين منعطفات المرحلة الثالثة من طريق الآلام في مدينة القدس القديمة ... وغرفتها على قدرها ، طولها أربعة أمتار ، وعرضها متران ، ويتألف أثاثها من سرير مفرد ، يستند إلى قوائم أربع ، إلا أن فراشه يُقبل الأرض ! وخزانة ضيقة عتيقة عرجاء ، تقفُ في الزاوية كما يقف المسكين مستعطياً ... ومائدة صغيرة تستعمل لكل شيء : للطبخ والأكل والزينة ، فغدت سوداء براقة لاختلاط دهانها بالزيوت التي تنساب عليها من الصحائف والملاعق ، وبساطاً « موزاييكا » حيك من مختلف الشرط البالية ، وصورة علقت على الحائط تمثل « الخضر » راكباً على فرسه وهو يلقم التنين رأس حربته ... وألبسة وقبعات نشرت على مشجب خشبي ... أما باب الغرفة ، فقد دقت فيه من الداخل مسامير صغيرة تستعمل لتعليق بعض المناشف وأوائل منزلية أخرى ... وألصقت عليه من الخارج رقعة كتب عليها : « أولجا نيقولا يفنا رومانوفا »

وتدعي السيدة السكوبية بأنها منحدرة من آل رومانوف قياصرة الروسيا ، وأن « الدهر الخؤون » طوّح بها إلى بلاد العرب ، وأنها فقدت زوجها ، ولم تنجب منه أولاداً ؛ فتفرغت للعبادة والخدمة في الصليب الأحمر ، وهي تعتقد أن لها « صلات قدسية » مع بعض القديسين ، وبوسعها أن تكون وسيطة فيما بينهم وبين قاصديهم من طلاب الحاجات .

وللسيدة السكوبية جيران يشفقون عليها فيمدونها بين حين وآخر بما تيسر من حواضر البيت ، وتغتنم هي الفرص في كثير من الأحايين فتقف عنـد باب غرفة جارها وتناديه ، فإن كان داخلها ورد عليها سألته :

— هل لي أن أعرف الوقت الآن ؟

وإن كان خارجها دفعت الباب صارخة :

— ما بك يا جاري ... عساك بخير ؟ فإن لم تجد في الغرفة أحداً تناولت شيئاً ، وانسحبت على عجل !

وفي أحد أيام شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٣ حلّ في الدير ضابط بولوني اسمه « يوزيك غروزني » سرح من الجيش لعـدم صلاحيته للخدمة العسكرية ، واستأجر غرفة في الطابق الأسفل من الدير ، وكان متاعه ما جلبه معه من الجيش من سرير عسكري وأحزمة وألبسة وأدوات أكل ...

وهنا تبدأ القصة :

فبينما كان يوزيك مستلقياً على سريره ذات مساء ، يستعرض بحرقة وألم الأيام العصيبة التي مرت به منذ أن فر من بولونيا ، حتى اشتراكه في معارك ليبيا ووقوعه جريحاً ، وإحالته إلى هذا الدير عاطلا ، إذ به يلمح امرأة تقف عند نافذة غرفته وهي تبسم له وتقول بالبولونية :

— حضرتك جارنا الجديد ؟

— نعم !

— أأنت جندي ؟

— أجل ، وسرحت لعطل في ساق

— ومن أية بلدة بولونية أنت ؟

— من لودز

— أحقاً أنت من لودز ؟ يا لغريب المصادفات ! إنني قضيت شطراً من شبابي في هذه المدينة الجميلة !

— وحضرتك ما اسمك ؟ ومن أين ؟

— أنا أولجا نيقولا يفنا رومانوفا ! (ورفعت رأسها إلى العلاء قليلا) إن الدم الأزرق يجرى فى عروق ، دم آل رومانوف !

فانتفض يوزيك فى سريره وانتصب واقفاً وهو يحدق النظر بـ «الأميرة» المشردة ، وكان يتنابه عاملان خفيان : عامل الكره للروس ، وعامل الحاجة إلى المونة . يود أن يصرخ فى وجه « سليلة » آل رومانوف ، ويسمعها قارص الكلام فى حق أبيها وعمها والحاشية القيصرية كلها ، لكنه أحس أنه أصبح من مساكين هذا الدير ، وهو فى مسيس الحاجة إلى من يساعده ويواسيه ، وعليه أن يكون سمحاً متواضعاً ، فخرج إلى حيث تقف السيدة السكوبية ، وقرع قدمه اليمنى بقدمه اليسرى ، وحياها بإصبعيه التحية العسكرية البولونية ، ثم انحنى على يدها وطبع عليها قبلة رشيقة !

وتوالت الزيارات فيما بعد بين يوزيك وأولجا ، فكانت هى تدعوه إلى شرب الشاى عندها ، وكان هو يشترى لها بعض الهدايا من المعاش الذى يتقاضاه من الوكالة البولونية . وهكذا توطدت أواصر الصداقة فيما بينهما ، وشعرا بالدفء إلى جانب بعضهما ... وفى ليلة كانا يتبادلان فيها أنخاب الفودكا ، فاتحها يوزيك بالزواج ، فأسبلت عينيها خجلا وتمتمت قائلة : « حقاً إنك لعفريت يا يوزيك ... أيتزوج عملاق لم يبلغ الأربعين من امرأة ضعيفة قد ناهزت الخمسين ؟ ! »

قال : ولم لا ؟ الحب يا سيدتى لا يقرّ بحد للأعمار ، ولا يعترف بالسمن أو الهزال ... الحب هو تبادل العاطفة المشبوبة بين نفسين متجانستين متفاهمتين ...

قالت : أتحبنى إذن ؟

قال : فلتشهد السماء على حبى لك ... ولنشرب نخب الحب والزواج ...

ولم تمض أيام على هذا الحديث حتى عرف كل من فى الدير أن أولغا أصبحت زوجة ليوزيك ، وأنهما سعيدان فى زواجهما هذا . ومن مظاهر هذه السعادة أنهما كانا دائماً منطويان على نفسيهما فى غرفة أولغا ، يشربان الشاى نهاراً ، والفودكا ليلا ، ويدخنان ويتناجيان ويقهقهان عالياً ، ويعربدان أحياناً بصورة تقلق راحة الجيران ، إلا أن هؤلاء كانوا يتسامحون مع العروسين الجديدين ، ويغضون الطرف عما يبديانه فى الدير من طيش ناتج عن انفعالات النفس والعاطفة ...

وحدث فى منتصف الليلة الثانية من الشهر الثانى لزواج يوزيك بأولغا أن هبّ سكان الدير مذعورين على صراخ عنيف ، وقرع شديد على باب الممر المؤدى إلى الغرف ، وسمعوا أولغا تكيل السباب والشتائم ليوزيك ، فتقول له : — اذهب أيها السكير إلى غرفتك ... إننى آويتك وأحسنت إليك ... اذهب أيها المتشرد ... وكان يوزيك يجيبها : لقد سرقتينى يا فاعلة كذا وكذا ... والله لأبطشن بك ... واحتدم الجدل فيما بينهما وحطم يوزيك باب الممر ، ثم اقتحم غرفة أولغا ولكمها على عينها لكمة قوية تركت حولها هالة زرقاء ، فاستنجدت بالجيران ، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على التدخل ، فاستنجدت مرة أخرى بأهل الحى ، فجاءها الحراس واعتقلوا يوزيك ، واقتادوه إلى دائرة الشرطة حيث حرر الضابط المسئول محضراً ، وكانت أولجا هى المدعية والشاهدة ، فقالت فى إفادتها : « لقد حطم زوجى الأبواب وضربنى ، فانى أطلب له أقصى درجات العقوبة » ...
ولما عادت إلى بيتها وسكنت إلى نفسها أخذ ضميرها يؤنبها ، فراحت تبكى وتنتحب وتتساءل قائلة : — « رباه ! من الذى سبب لزوجى الاعتقال غيرى ؟ ... ومن الذى أسكره ، وسرقه ، وقاده إلى سطح الدير سواى ؟ » .

يبدو أن الإنسان مهما انحطت أخلاقه وفسدت ، ومهما تدهور إلى مصاف الأسافل وتخبط فى حضيض الحياة ، يظل حاملا فى نفسه القليل من الكرامة ، واليسير من المنويات ، فتراه إذا ما هزته مساوئه يثوب إلى رشده ، ولو إلى حين ، فيذكر أنه لا زال ينتمى إلى بنى الانسان ، وأن ما يقوم به من أعمال شريرة لأمر يناقض الأنظمة العامة التى اتفق عليها الناس ، يخالف الطبيعة البشرية على الجملة .

وهكذا أحست أولغا بعامل خفى يدفعها لأن تسعف يوزيك ، فعادت للتوّ إلى دائرة الشرطة وقالت للضابط المسئول : — أودّ إدخال بعض توضيحات فى إفادتى .

فقال — وما هى ؟ ...

وأيضاً، تهجم على التخطئة!

للأستاذ محمود محمد شاكر

إلى أخي البصام :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فيخيل إلى — والله أعلم — أنك رجل واسع المعرفة ، مغرًى بالتحصيل ، دقيق البصر ، تطلب الكلام وإسناده ووجهه ومكانه وضوابطه . وحسب طالب المعرفة أن يكون كذلك .

وقد طلع على مقالك في الرسالة ، فما أدرى والله من أى أمريك أعجب ؟ من واسع معرفتك ، أم من حسن تهديك إلى مواطن الشبهة في كلامى . أم لعلى أعجب من استجلابك للحجة بعد الحجة في تخطئة شيء كان الناس في غنى وراحة عن اضطرابهم بين صوابه وخطئه ؟

ومختصر القول هو أنك تريد أن تقول إن الكتاب ينبغى أن يبدأ كما بدىء في بعض كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب أصحابه بقولك : « سلام عليك » فإذا كان الختام قيل : « والسلام عليك » ، وأن من بدأ الكتاب بقوله : « السلام عليك » فقد أخطأ . أفهذا شيء من أدب الكتابة واتباع السنة وحسب ، أم هو قاعدة توجب الاتباع نحواً ولغة ورواية ، فيكون من بدأ بقوله : « السلام عليك » معرفاً فقد أخطأ في حق النحو واللغة والرواية ؟ وكلامك كله يدل على أن البدء بالسلام المعرف خطأ من قبل النحو واللغة والرواية . أليس كذلك ؟

فإذا كان ذلك كذلك ، فقد رويت لك قول صاحب اللسان في مادة (سلم) : « ويقال السلام عليكم ، وسلام عليكم ، وسلام بحذف عليكم » ، وهذا ولاريب قول اللغة والرواية والنحو فيما رواه لنا الرواة ، في تحديد بدء السلام (الذى هو التحية) . هذه واحدة .

ثم ذكرت لك قول الأخفش الذى رددته على ، وقلت إنه لايعتد به (هكذا) ، لأنى لم أذكر مصدره الذى نقلت عنه ، وفيه تصريح بين كتصريح صاحب اللسان ، ثم زاد فأظهرنا على العلة فقال إن « سلام عليكم » ، حذفت منه الزيادة (وهى الألف واللام) كما يحذف الحرف الذى هو من أصل الكلمة في قولنا : (لم يك) . وعلة أخرى هى أنه لما كثر استعمال « السلام عليك » بالألف واللام حذفا لكثرة الاستعمال . وهذا تقرير يدل على أن اللغة

قالت : وإننى لأقر بأن زوجى لم يقصد من تحطيم الأبواب إلحاق الأذى بى ، أو العبث بحوائجى ، وإنه فعل ذلك وهو تحت تحت تأثير الخمر فقط ، وأما اللكمة التى أصابتنى منه فقد كانت عفواً ...

وبالرغم من هذا التوضيح في الإفادة حكم على بوزيك بالسجن أسبوعين ، وفى السجن قص على زملائه قصته فقال فيما قاله :

« ... وكان من عادة زوجتى إذا ما وجدتنى ثملا أن تفتش جيوبى ، وتأخذ ما تجده فيها من مال . وحدث مرة أن قبضت معاشى وجئت البيت ، فوجدتها قد أعدت لى زجاجة كبيرة من الفودكا فأتيت عليها . ولما لعبت الخمر برأسى قالت لى : « هيا يا منى قلبى لنتنزه في ضوء القمر ! » . فقمت أترنح مستنداً إلى ذراعها ، واقتادتنى إلى حيث أرادت . ولا أذكر كيف أفقت فوجدتنى ملقى على السطح ففتقدت معاشى فلم أجده ... فأدركت للحال أن « الأميرة » سرقتنى .

فقال أحد المساجين : — ماذا تقول ... أميرة ؟ ...

فأجاب بوزيك : — أجل ، تدعى زوجتى أنها من سلالة آل رومانوف ! ...

فقال سجين آخر : — ومن تكون زوجتك إذن ؟

قال : — ليست زوجتى سوى امرأة مقامرة في حياتها . فرت من روسيا إبان الحرب الأهلية ، ثم قامت بأعمال مظلمة هنا وهناك ، وتجولت بين تركيا والبلقان وعمان ! ... وها هى اليوم تبارك الناس في النهار وتسطو على في الليل .

ولما خرج بوزيك من السجن كانت أولجا تنتظره ، فتصافحا وتعانقا ، وعادا إلى مسكنهما سوية ، وكانت هى قد أعدت له كعكا وشايا ، فجلسا إلى المائدة ، ودار بينهما حديث عتاب . وحديث آخر عن الإنسان وحظوظه العاثرة ...

نجاتي صدقي

والنحو والرواية تجعل الأصل فى السلام المبدوء به هو التعريف .

فإن شئت أن تعرف أن وقع هذا الكلام عن الأخفش فاطلبه فى ص ١٥٢ ج ١ من كتاب تهذيب الأسماء واللغات للنووى وفى غيره أيضاً . هذه ثانية .

فإذا شئت أن تزداد علماً فخذ كتاب « المخصص » لابن سيده ج ١٢ ص ٣١١ واقرأ قوله : « فأما قولهم : سلام عليك ، فإنما استجازوا حذف الألف واللام منه ، والابتداء به وهو نكرة ، لأنه فى معنى الدعاء ، ففيه وإن رفعت معنى المنصوب » . يريد كأنك تدعو فتقول : « سلاما » . وقوله « استجازوا » دليل على أن الأصل هو التعريف بالألف واللام فى ابتداء التحية ، وأن الحذف ترخُّص منهم ، وهو شبيه بقول الأخفش . هذه ثالثة .

فإن شئت أن تضرب الأمثال لنفسك بالشعر كما ضربتها لى ، فاقرأ قول جرير فى ديوانه ص ٤٤٣ وفى النقائض ج ١ ص ٢١٢

يا أمّ ناجية السلام عليكم قبل الرواح وقبل لوم العذّل

هذه رابعة .

وإن شئت أن تقرأ قول لبيد فى الخزانة ج ١ ص ٢١٧ — ٢١٨ ، وفى ديوانه :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فافعل تجد قولهم أن كلمة (اسم) مقحمة ، وتقدير الكلام فيما يقول النحاة : « ثم السلام عليكما » ، وتجد أيضاً فى إحدى روايات « إلى سنة ثم السلام عليكما » . هذه سادسة .

فانظر لنفسك هل أخطأ كل هؤلاء وأصبت أنت ؟

واعلم مشكوراً أن المقام فى هذا كله مقام ابتداء لا مقام ختام مسبوق بسلام منكرٍ غير معرف .

وأما نص ابن قتيبة فهو كلام بين لا غموض فيه ، فالرجل يقول لك : « تكتب فى صدر الكتاب : سلام عليك ، وفى آخره السلام عليك » ولم يقل لك إنه ينبغى ، ولا أن القاعدة « أن تكتب فى صدر الكتاب كذا ... » ، وهو إنما ذكر هذا فى كتابه فى (باب الهجاء) لا فى باب أدب الكتابة كما ترى ، ولم يأمر الرجل ولم ينه ، ولم يقل لك إن من قال فى أول كتابه « السلام عليك » معرفاً فقد أخطأ ، كما شئت أنت تقوّله . وأما ما ذكره من أمر التعريف ، فإنه أراد أن يعلمك لِمَ عُرِّف ثانيا وقد جاء منكراً وهو أول ، وكان حقه أن يأتى فى الآخر منكرا مرفوعاً كما جاء فى الأول فقال لك : « لأن الشىء إذا بدىء بذكره كان نكرة ، فإذا أعدته صار معرفة ، وكذا كل شىء . تقول : مر بنا رجل ، ثم تقول : رأيت الرجل قد رجع . فكذلك لما صرت إلى آخر الكتاب ، وقد جرى فى أوله ذكر السلام عرفته أنه ذلك السلام المتقدم » ، ويريد أن يقول إن التعريف هنا « للعهد لا للجنس » . هذا كل ما فى كلام الرجل ، لم يوجب شيئاً ولم يمنع شيئا .

وأما الآية التى فى سورة مريم من قول عيسى عليه السلام : « والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ... » ، وما جاء من قول الزمخشرى فيها : « قيل أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله » يعنى فى قول الله تعالى ليحيى : « وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ... » فذلك تفسير من الزمخشرى لمعنى (ال) فى قول من قال إن التعريف هنا للعهد . وأبى الزمخشرى أن يكون كذلك ، لأن العهد ههنا باطل عنده ، فالسلام المذكور فى قصة يحيى كان من قول الله سبحانه قبل مولد عيسى ، وهو آت فى أول السورة فى الآية (١٥) ، ثم مضى بعدها « واذكر فى الكتاب مريم » وذكر الله سبحانه قصتها ، حتى أفضت إلى كلام عيسى وهو فى المهد إذ قال : « والسلام على يوم ولدت ... » فى الآية (٣٣) ، فبين السلام الأول والثانى (١) انقطاع فى المدة (٢) وانقطاع فى السَّرْد (٣) واختلاف فى مبتدىء السلام وملقيه ، فالأول من الله والثانى من عيسى . هذا وسلام عيسى فى الآية الثانية المعرف فيها السلام ، ابتداء ولا ريب .

ومن أجل ذلك ذهب الزمخشرى إلى أن التعريف ههنا للجنس لا للعهد (وهذا كما ترى يخالف كل المخالفة ما أراده ابن قتيبة فى كلامه) . ثم ذكر الزمخشرى نكتة البلاغة فى التعريف فقال إن تعريف الجنس هو الصحيح لا تعريف العهد « ليكون ذلك تعريضاً باللعنة على متهمى مريم وعلى أعدائها من اليهود » . وهذا عندى تعليل ضعيف جداً من الشيخ رضى الله عنه ، وكان خليقاً به أن يصرف عنه وجهه . ولولا أنه كان مولعاً بنكت البلاغة لما وقع فى مثل ما وقع فيه . وإن شئت أن تزداد فقهاً ومعرفة بما قلت فاقرأ تفسير الشهاب الخفاجى والألوسى والقونوى وأبا حيان

وكتاب الأنموذج للرازي وتدبر ما فيها كل التدبر .

وأما قوله فى الآية الأخرى من سورة طه : « والسلام على من اتبع الهدى » إن معنى التعريف ههنا التعريض بحلول العذاب على من كذب وتولى ، فهذا جيد وحسن لقوله تعالى فى الآية التى تليها : « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » . وهذا أيضاً طلب لنكت البلاغة ، وتبيان لأن التعريف ههنا للجنس . ولكن الزمخشرى لم يقل لك ، ولا غيره فيما أحسب يقول لك : إن تعريف الجنس ينبغى أبداً أن يكون متضمنا معنى التعريض بشيء كالعذاب أو الويل أو الهلاك أو سوى ذلك كله .

ولو كان ذلك كذلك أيها الصديق لكان قصر تعريف الجنس على التعريض عجباً من العجب المضحك ، فانظر إلى قولك « سلام عليك » التى كان أصلها « سلاما عليك » منصوبة بفعل محذوف ، والتى عدل بها من النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات معنى السلام واستقراره ، مع بقائها فى معنى الدعاء ، فأنت إذا عرفتها تعريف الجنس فقلت « السلام عليك » اقتضت التعريض ، فعندئذ تقول لى كما قلت : « وبديهى أيها الأستاذ أنك لا تعنى بقولك (السلام عليكم) فى بدء كتابك الأول تعريضاً بأحد إذ لا حاجة إلى التعريض » .

فخذ عندئذ أختها وهى قولهم « حمد لله » التى كان أصلها « حمداً لله » منصوبة بفعل محذوف ، والتى عدل بها من النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات معنى الحمد واستقراره ، مع بقائها فى معنى من معانى الشكر والدعاء . فإذا عرفتها تعريف الجنس فقلت : « الحمد لله رب العالمين » أفيقتضى ذلك تعريضا أو توبيخا أو تهكما !!! ألا يكون هذا عندئذ عجباً من العجب المضحك ...

ومن أجل تعريف الجنس ما أتعب الزمخشرى نفسه فى آية مريم وفى آية طه ، وفى سورة الفاتحة من تفسير قوله : « الحمد لله » فاقرأه هناك وتدبره كل التدبر .

وأما مسألة حديث التشهد فأراك جُرْت فيها على الحق . ولقد قلت فى مقالك : « أما أهل القبلة فتشهدهم بعد الصلاة مختلف فيه ، فمنهم من يقول (سلام عليك) ومنهم من يقول (السلام عليك) » . وقبل كل شيء ، فتشهد أهل القبلة لا يكون « بعد الصلاة » وهو « من الصلاة » ومن تركه أو بدّل فيه بطلت صلاته . هذه واحدة ، وأما الثانية ، فاختلاف أهل القبلة ليس يقال كما رويت ، فالصحابة جميعاً والتابعون من بعدهم ، وأئمة المذاهب من عرفت منهم ومن لم تعرف ، مذهبهم تعريف السلام فى التشهد كله إلا (ابن عباس) من الصحابة ، والشافعى من أصحاب المذاهب ، فإنه ارتضى تشهد ابن عباس وآثره لأنه عنده (هو) أتم الروايات وأكملها ، ولكنه لم ينكر التعريف ، ولا استنكره المزنى ولا سواه من أئمة مذهبه . فلو أنت عنيت نفسك فرجعت إلى شرح البخارى كابن حجر (ج ٢ ص ٢٦١ وما بعدها) والعينى (ج ٦ ص ١٠٩ وما بعدها) لعرفت أن الصحابة والتابعين مجمعون على روايته بالتعريف فى التشهد جميعاً ، ولرأيت أن أكثر الصحابة قالوا فى حديث التشهد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم التشهد كما يعلمهم السورة من القرآن ، ولرأيت النووى وهو من أصحاب الشافعى يقول : « قوله السلام عليك أيها النبى ، يجوز فى السلام فى الموضعين حذف اللام وإثباتها ، والإثبات أفضل » . أبعد هذا يا سيدى تطالبنى بأن أطلعك أنت « على نص يوثق به يشير إلى أنهم منذ زمن الرسول (ص) يقولون فى التشهد السلام عليك أيها النبى » ! عسى ولعل ، ولعل أهل القبلة أخطأوا جميعاً وأصبت أنت ! بما أوتيت من التدقيق والتحقيق والفحص وطلب المواثيق ! !

وأما إنكارك الحديث على ما خيّلت لك ، وأنه مما لا يستشهد به أهل اللغة والنحو ، واحتجاجك على ذلك بشيء اقتطعته من بحث فى خزانة الأدب ج ١ ص ٦ ، ولم تتمه على وجهه بالتدقيق والتحقيق والفحص وطلب المواثيق كدأبك وعلى عادتك ، فهذا باب وحده لو ارتطمت فيه لم تعرف مخرجك منه . وما الذى ألجأك إلى هذا أيها العزيز ؟ ألأنى أتيتك بحديث المسند ج ٤ ص٤٣٩ وفيه النص على أن المسلمين كانوا يبدأون التحية بقولهم « السلام عليك » ؟

والحديث الصحيح الذى استخلصه رواتنا رضى الله عنهم ، فنفوا عنه كذب الكاذبين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين حجة فى اللغة والنحو ، ولو زعم لك زاعم أنه لا يكون حجة فى اللغة ولا فى النحو فاعلم أنه مبطل ، وأنه غافل لا يدرى ما يقول . ولو رجعت إلى الخزانة التى نقلت عنها (وحسبك ولا أزيدك) علمت أن صاحبك نقل الذى نقلت لى فى كلامك ، وأنه رجل عالم طالب حق لا مغرور بباطل ، فقد ذكر وجوه اعتراض المبطلين فى الاحتجاج بالحديث ثم نقضها حجة حجة ، وصرح

بأن تدوين الأحاديث وضبطها وقع فى الصدر الأول من الاسلام قبل أن تفسد اللغة وترتضخ الألسنة بالكنة الأعجمية ، كما يعلم ذلك من درس تاريخ رواية الحديث وتدوينه حقّ دراسته ، ثم صرح فى آخر كلامه بأن لا فرق بين جميع روايات الحديث مهما اختلفت ألفاظها ، فى صحة الاستدلال بها فى اللغة والنحو . وكنت حقيقاً أن تقرأ كلَّ هذا قراءة طالب العلم ، فلا تسألنى أن أغلق باب الاستشهاد بالحديث ، من أجل كلمات رويتها لم تحسن وضعها فى مواضعها .

وإلا فحدثنى أيها العزيز لم ترى علماء اللغة ، كصاحب اللسان ، وابن الأثير ، والزمخشرى صاحبك وصاحب كتاب الفائق ، وسواهم ممن عرفت ومن لم تعرف — يملأون كتبهم استشهاداً بالحديث على معان لم توجد فى غير الحديث ، ولو طلبت لها شاهداً من الشعر أو غيره لم تجد . فإما أن يكونوا هم المبطلين ، وإما أن تكون أنت على حق ، فنبطل من أجلك نصف اللغة ونصف النحو وأشياء أخرى كثيرة .

ثم انظر إلىّ أيها الصديق ! ألست أنت الذى تقول هذا ، وتقول لى أيضاً فى صدر من كلامك معلّما ومنبّها ومقرعاً إنه « فاتنى أن الحديث لا يستشهد به أهل اللغة والنحو » . هو أنت أنت الذى لم يلبث فى آخر كلامه أن يأتى بشىء يناقض هذا كل المناقضة ، فنقلت كتاب رسول الله إلى المقوقس ، وهو من الحديث ومما رواه المحدثون ، وكتابه إلى كسرى ، وهو من الحديث ، وكتاب أبى بكر إلى المرتدين ، وهو من رواية أهل الحديث ، ثم أردفت ذلك بقولك : « ومعلومٌ أن هذه الكتب مُدَوَّنة ويستشهد بها اللغويون والنحاة » ؟! ياعجبا كل العجب ! فمن الذى روى لك هذه الكتب ؟ أليسوا هم الذين رووا لك الحديث ، وحديث التشهد ، وحديث السلام فى المسند ؟ وأين دوّنت هذه الكتب إلا فى الكتب التى دوّن فيها الحديث ؟ وما فرق ما بين تدوين الحديث وتدوين هذه الكتب ؟

وإن كنت قد ارتضيت هذه « الكتب المدونة » حجة يوثق بها ، فخذ كتاب الزمخشرىّ صاحبك ، وهو المسمى بالفائق ج ٢ ص ٣ ، واقرأ فيه وفى غيره أيضاً : « من محمد رسول الله إلى بنى نهد بن زيد . السلام على من آمن بالله ورسوله ... » إلى آخر الكتاب ، ولم يعترض الزمخشرى أيضاً على هذا البدء ، ولم يقل إنه خطأ فى اللغة ولا فى النحو .

ثم خذ صاحبك الطبرى ج ٣ ص ١٥٦ الذى نقلت منه كتاب رسول الله إلى المقوقس ، وكتاب أبى بكر ، وصاحبك « كتاب صبح الأعشى » ج ٦ ص ٤٦٥ ، الذى نقلت عنه كتاب الرسول إلى كسرى ، ثم اقرأ هداك الله : « لمحمد النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد . السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ... » إلى آخر الكتاب .

فهل قنعت أيها العزيز بما سقت إليك ؟ وأمحضك النصح أن لا تتبع تلك الناجمة التى نجمتْ بين أهل اللغة تريد أن تتبجح بالعلم والمعرفة والفقه ، فتأتى صواب الناس ترميه بالخطأ على الشك والتوهم وسوء التأويل وفساد الفهم . واعلم أن العربية تعلِّم العقل ، فمن شاء أن يطلبها بحقها فليصبر عليها صبر المؤمن . وأنت امرؤ فيك خير فلا تُضيع ما آتاك الله بالعجلة والتسرّع ، فتثبت قبل أن تحكم ، وتدبر قبل أن تقطع ، واستقص قبل أن تستوثق ، وانظر لنفسك قبل أن تَزِلّ بك قدمٌ ، واعلم أن شرّ أخلاق الناس اللجاجة ، وشرُّ اللجاجة لجاجة العالِم ، وشر لجاجة العالم لجاجته فيما لا يعلم أو فيما لا يحسنُ ، وأن نصف العلم قول المرء فيما لا يدرى لست أدرى . فالفهمَ الفَهْمَ فيما تلجلج فى صدرك ، هداك الله وأعانك وسدّد خطاك . والسلام عليك ورحمة الله .

محمود محمد شاكر

من مذكراتي في أمسي القريب :

حول إنعـــام ...

للأستاذ فؤاد صروف

في ٢٦ أبريل ١٩٤٥ :

شرف الملك أمس حفلة افتتاح معمل المصل الجديد ، وأنعم على الدكتور شوشه برتبة باشا . فنعم النعيم ونعم المنعَم عليه ...

وقد كنت منذ سنوات في مجلس أديب كبير ، فدار الحديث على الرتب والأوسمة . وكان أغلب الرأي بين المتحدثين أن تُلغى الرتب كما فعلت العراق وسوريا ولبنان ، ولكن الكبير قال : إذا ألغيناها فكيف نستطيع أن نميز الرجل الذي يستحق التقدير والتمييز لما يسديه من خدمة إلى الدولة ، أو لما يتفوق فيه على الأقران من علم أو أدب أو فضل ؟ وكانت الكلمات الأخيرة في السؤال لا تزال تضطرب على شفتي السائل ، حين دخلت المجلس سيدة ذكية حصيفة ، فوجه السؤال إليها ، فقالت دون أن تتردد لحظة واحدة : حسبه تقدير النخبة من المثقفين فكان قولها فصل الخطاب .

والدكتور شوشه ، ظفر أمس بعد إنعام الملك السامي ، بالحسنيين : تقدير الملك المتمثل في رتبة عالية ، وتقدير النخبة من المثقفين ، الذين عرفوه فأنزلوه من تقديرهم في المنزلة العالية .

وحين قرأت ذكر الدكتور علي توفيق شوشه أمس ، تزاحمت الخواطر على ذهني ، فقد عرفته أول ما عرفته ، حين كان وكيلا لمعامل الصحة فمديراً لها . فكان يومئذ مكباً على البحث العلمي الأصيل ، مستغرقاً فيه دون أن ينصرف عن شئون الإدارة . ولم يكن بحثه بحثاً في فراغ — على ما يقول علماء الطبيعة — بل كان بحثاً في مشكلة معينة ، لها صلة بالإنسانية التي تتعذب ، وبالإنسانية المصرية على وجه خاص . فقد كان همه أن يكشف سبيلا لمكافحة سم العقرب الذي يكثر المصابون به في مصر . وقد فعل .

ثم عرفته محاضراً مجيداً بالإنجليزية والعربية ، وقد قيل لي إنه أحسن محاضر بالألمانية ، ولكنني لا أعرفها . وعرفته زميلا محترم الرأي في المجمع المصري للثقافة العلمية ، وكنت سكرتير المجمع حين تولى رئاسته . فتجلى لي في كل هذا رجلا آخر : فهو رجل ليس واسع العلم دقيق البحث وحسب ، بل يستطيع أيضاً أن يبسط العلم وينقله من لغة إلى لغة نقلا بارعاً ، تعلو عبارته العلمية الدقيقة سمةٌ من طرافة الأدب . وقد أتيح لي أن أنشر في المقتطف ، وفي كتب المجمع السنوية ، نصوص أربع من محاضراته في الغازات الحربية ، وسيرة كوخ وأعماله ، والمعركة اليومية في الجسم البشري ، وتقدم الطب خلال خمسين سنة . وكان لابد من أن أديم النظر فيها عند تصحيح التجارب ، وكنت أتوسل بتلك التجارب لكي أذهب إليه في المعامل لأظفر بشيئين : أن أفحصها معه فأضمن دقتها ، وأن أستمتع بتعليقه عليها وعلى ما فيها من وجوه التعبير . فتعلمت في خلال هذه الساعات التي كنت أسترقها من وقته ، بين إدارة المعامل وبحثه العلمي الأصيل ، أن أقدر أسلوبه البارع في تقريب العلم ، وحسه اللغوي الدقيق في التعبير عن المعاني العلمية ومصطلحاتها ، قديمها وجديدها على السواء .

ثم عين وكيلا لوزارة الصحة ، وكأن السنين الطويلة التي قضاها في تحصيل العلم وممارسة بحوثه الأصيلة ، وإعداد المحاضرات لتقريب معانيه وإلقائها ، وما علمه بالتجربة من حاجة مصر إلى الإصلاح الصحي من وجوهه الكثيرة ، وما فطر عليه من حب الخير والعمل — قد احتشدت جميعاً ، لتكون الأساس لمشروعات الصحة المتعددة التي وضعها أو محصها مع الوزراء الذين تولوا الوزارة ، والمتخصصين من رجال الوزارة ورجال كلية الطب ، فصح فيه يومئذ ذلك القول المأثور : « هذا المنصب لهذا الرجل » .

هذه المعاني الثلاثة : البحث العلمي الأصيل الذي يحول بعض المجهول معلوماً — والمحاضرة العلمية المثقفة التي تجعل بعيد معاني العلم دانياً منقاداً ، وتطبيق قواعد العلم وأغراض العلم في أعمال الحكومة والإدارة لتحقيق خير الشعب — هي التي تألقت في ذهني حين علمت بأن جلالة الملك تفضل فخصه بإنعام سام ، كان إنعاماً على العلم والعمل النافع جميعاً .

وهذه المعاني الثلاثة تقرر حقيقة ، وترسم دستوراً لجميع العاملين . أما الحقيقة ، فسطورة في سجل خدمته ، وأما الدستور فركن من الخطة العظيمة التي لا بد لمصر من أن تختطها — منذ اليوم بل منذ الساعة ، لكي تعد نفسها لمواجهة مشكلات الغد وحلها ، حتى تستطيع أن تقيم في هذا الوادي عالماً أفضل من

عالم أمس الغابر ، عالماً يقوم على الوفر دون العوز ، وعلى الصحة دون السقم ، وعلى العلم دون الجهل ، وعلى أخلاق الرجال .

وفى وضع هذه الخطة وإنفاذها ، لابد لنا من أن نربى العلماء الذين يتولون العلم ببحوثهم الأصيلة . ولست فى حاجة إلى إقامة الدليل على أن العلم قوة ، وينبغى أن نطلبه ولو فى الصين . فليس ثمة ناحية من نواحى حياة الفرد أو المجتمع لم يتغلغل فيها العلم فرفع من شأنها وأصلح من أمرها : الزراعة والصناعة والغذاء والصحة والمواصلات والمخاطبات . وكثير مما أنجبه العلماء فى سائر بلاد الناس ، يصلح لنا فيصح أن نتعمق فيه ونتدرب عليه ثم نتخذه فى ما يصلح له من شئوننا ؛ ولكننا نجد فى بيئتنا مشكلات خاصة ، لا يصلح لبحثها أو حلها إلا علماؤنا . وهم ماضون فى ذلك بحمد الله ، ولكن عددهم يجب أن يزداد أضعافاً . وتأييدهم من الحكومة والشعب يجب أن يستفيض فى الميزانية ، وعلى ألسنة الناس وفى مجالسهم وصحفهم ، وصلتهم بالصناعة المصرية ينبغى أن تتوثق . وحبذا لو طالع القراء الكتب السنوية التى أصدرها المجمع المصرى للثقافة العلمية — هذا المجمع الذى كان الدكتور شوشه أحد مؤسسيه ، ثم أحد رؤسائه — إذن لوجدوا فى مئات من الصفحات ، فى خمسة عشر مجلداً نفيساً أو تزيد ، عشرات من المسائل القومية فى الزراعة والصناعة وتوليد الطاقة ، وحفظ التربة ، وكفاح المرض ، وتجويد الغذاء وتحسين الصحة العامة لا يصلح لبحثها وحلها إلا الأكفاء من المصريين ، الذين جرى حب البلاد والشعب فى عروقهم ، وتدربوا على البحث العلمى الأصيل . وما تجربة الدكتور شوشه وسم العقرب ، ومرشحات الماء فى المنازل الريفية والقرى الصغيرة والمتوسطة التى أخرجها منذ سنوات ، سوى مثلين وحسب .

أما تبسيط العلم وتقريب معانيه البعيدة ، وبث روحه العالية فى جماعات الناس التى لم تظفر لسبب من الأسباب بالقسط الذى تتوق إليه منه ، فقد أصبح لزاماً فى هذا العصر الذى اتسع فيه نطاق المعرفة اتساعاً لا عهد لنا بمثله فى عصر سابق من عصور التاريخ . فكل علم من العلوم القديمة قد نما واتسع نطاقاً وتشعب فروعاً ، فتولدت منه علوم جديدة كل منها أدق من سابقه معنى وأشد عناية بالتفاصيل ، فهو لذلك أشق على الحصر والإحاطة به . فقد كشف النظار عن كواكب ونظم منظومة من النجوم والسدم يتعذر على عقل واحد أن يلم بها جميعاً ، وأصبح رجال الجولوجيا يذكرون ألوف الملايين من السنين ، على حين كان رجال العصور السابقة لا يذكرون إلا الألوف ، وأماط علم الطبيعة اللثام عن كون منتظم فى الذرة ، والبيولوجيا عن كائن حى فى الخلية . وأبان علم وظائف الأعضاء طائفة يتعذر حصرها من أسرار الأعضاء ، وأثبت علم النفس وجود عوالم وعوالم من الفكر والشعور فى كل حلم ، وجاء رجال علم الإنسان فوصفوا لنا صورة عجيبة عن قدم الإنسان على سطح الأرض ، وجاراهم رجال الآثار فأخرجوا من جوف الأرض مدناً وحضارات ، وتبعت ذلك المخترعات العجيبة التى يسرت أساليب الحياة ، ولكنها خلقت طائفة كبيرة من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية تكاد تستعصى على الحل .

وفى هذا كله روعة تأخذ بمجامع النفس ، ولكن يكمن فيه خطر لا بد من تبيينه والتحذير منه . فالتخصص يزداد على الزمن تعمقاً فى شئون لا يدركها المثقف من أوساط الناس ، والمثقف الوسط يتسع نطاق ما يعرفه ، ويضيق نطاق ما يفهمه . ولما انقسمت المعرفة على هذا النحو عجزت عن توليد الحكمة ، وصار لكل علم ، ولكل فرع من علم ألفاظ خاصة لا يفهمها إلا المتخصصون . وصار زعماء معظم الأبحاث عاجزين عن وصف ما يكشفون بلغة الناس .

ومن هنا اشتدت الحاجة إلى العلم الذى يستطيع أن يُفهم الشعب ما يفعله المتخصص أو يكشفه ، فمهمته أن يتعلم لغة المتخصص ، كما تعلم المتخصص لغة الطبيعة ، ثم يحطم الحاجز اللغوى القائم بين المتخصص والأمة ، أو الحاجز اللغوى بين لغة ولغة أو كليهما ، كما هى الحال عندنا الآن .

ومن آيات التوفيق فى كفاح هذا الخطر ، أن قام فى الغرب علماء وهبوا هذه القدرة التى نطلبها فى هذا الطراز من العلم المثقف . والدكتور شوشه مثال بيننا لما أسداه أولئك العلماء إلى قومهم . فعلمه الواسع الدقيق يمده بالقدرة على الغوص على المعانى البعيدة فى العلوم التى توفر عليها ، وخياله الخصب يعهد له تصوير تلك المعانى صوراً شائقة قريبة ، وحسه اللغوى الأدبى يمكن له إفراغها فى عبارات ناصعة عربية وبيان عال . والقوى الثلاث تضبط إحداها الأخرى : فالعلم يضبط الخيال فلا يشذ ، ويمسك القلم فلا يفرق ، وإذا العبارة القصيرة ، أو المحاضرة الطويلة ، آية فى الوضوح والرواء والإحكام .

(البقية فى صفحة ٣٤٠)

من الأغانى العالمية :

حنين الغريب

[لناظمها فوستر]

بقلم الأستاذ كامل كيلانى

ذكرنا فى العدد ٦١٤ من الرسالة أن جمعية مصرية ألفت لتعريب الموسيقى العالمية قوامها الأساتذة على مصطفى مشرفة باشا وكامل كيلانى ومحمد زكى على وإسماعيل راتب وعلى بدوى ، وأنها اختارت عشر أغانٍ لعباقرة الموسيقى فنقلها نظماً إلى اللغة العربية الأستاذ كيلانى ، ثم نشرتها على الناس منظومة مدونة . ونزيد اليوم أن الجمعية لا تزال دائبة على تنفيذ هذا المشروع العظيم ، وأنها على وشك أن تخرج للناس مجموعة أخرى من هذه الأغانى . ويسرنا أن ننشر منها هذه الأغنية الجميلة لتكون لعشاق هذه الفكرة ومرتقبيها عجالة لهفان وعلالة مشوق .

يانهر سُوَانى(١) : نفسى تهواك   قلبى حَيَّاكْ
من كلِّ أرض فكرى يَرْعاكْ   قلبى يَهْوَى نجواكْ
فى التلِّ العالى فوق الوديانْ   أمشى حيرانْ
فى الروض الخالى تحت الأفنانْ   تقتلنى الأحزانْ
يا صِحابى : يا رفاقى :   بلِّغوا السَّلامْ
يا فؤادى : كَمْ تُلاقى   من لاعِجِ السَّقامْ

يا عهدَ الوادى ، يا عهدَ النُّورْ   عهدَ صِباىْ
أجْرى وأغَنِّى وأدُورْ   وأناجى ليلاىْ
يا عَهْدًا وَلَّى والدَّهْرُ سَعِيدْ   حُلْوُ التغريدْ
ترعانى أمِّى ، والعيشُ رَغيدْ   أتُراهُ يعودْ !
يا صِحابى يا رفاقى :   بلِّغوا السَّلامْ
يا فؤادى كَمْ تُلاقى   من لاعِجِ السَّقامْ

أوطانى فيها كوخٌ أرْعاهُ   أنا لا أنساهْ
كم تَشْكو قلبى حُزْنًا ذِكْراهْ   سَحَرَتْنى رَيَّاهْ
والنَّخلُ تجنى النُّورَ البسَّامْ   بين الآكامْ
أفدِى بحياتى تلكَ الأيامْ   أفدى عهدَ الأحلامْ
يا صِحابى يا رفاقى :   بلِّغوا السَّلامْ
يا فؤادى كَمْ تُلاقى   مِنْ لاعِجِ السَّقامْ

(١) نهر بجنوب أمريكا .

ليتنى . . . !

للمرحوم أبى القاسم الشابى

«أيها الشعب ليتنى كنت حطَّا   با فأهوى على الجذوع بفأسى
ليتنى كنت كالسيول إذا سا   لت تهد القبور رمسا برمس
ليتنى كنت كالرياح فأطوى   كل ما يخنق الزهور بنحسى
ليتنى كنت كالشتاء أغشِّى   كل ما أذبل الخريف بقرسى
ليت لى قوة العواصف ياشعـ   ـبى فألقى إليك ثورة نفسى
ليت لى قوة الأعاصير لكن   أنت حى تقضى الحياة برمس
أنت روح غبية تكره النو   ر وتقضى الدهور فى ليل ملس
أنت لا تدرك الحقائق إن طا   فت حواليك دون مس وجس
فى صباح الحياة ضمخت أكوا   بى وأترعتها بخمرة نفسى
ثم قدمتها إليك فأهرقـ   ـت رحيقى ودست ياشعب كأسى
فتألمت ثم أسكتُّ آلا   مى وكفكفت من شعورى وحسى
ثم نضدت من أزاهير قلبى   باقة لم يمسها أى أنسى
ثم قدمتها إليك فمزقـ   ـت ورودى ودستها أى دوس
ثم ألبستنى من الحزن ثوبا   وبشوك الصخور توجت رأسى
ها أنا ذاهب إلى الغاب ياشعـ   ـبى لأقضى الحياة وحدى بيأسى
ها أنا ذاهب إلى الغاب علِّى   فى صميم الغابات أدفن نفسى
ثم أنساك ما استطعت فما أنـ   ـت بأهل لخمرتى ولكأسى
سوف أتلو على الطيور أناشيـ   ـدى وأفضى لها بأحزان نفسى
فهى تدرى معنى الحياة وتدرى   أن مجد النفوس يقظة حس
ثم أقضى هناك فى ظلمة الليـ   ـل وألقى إلى الوجود بيأسى
ثم تحت الصنوبر الناضر الحلـ   ـو تخط السيول حفرة رمسى
وتظل الطيور تلغو على قبـ   ـرى ويشدو النسيم فوقى بهمس
وتظل الفصول تمشى حوالىَّ   كما كن فى غضارة أمس
أيها الشعب أنت طفل صغير   لاعب بالتراب والليل مغس
أنت فى الكون قوة لم تسسها   فكرة عبقرية ذات بأس
أنت فى الكون قوة كبلتها   ظلمات العصور من أمس أمس

والشقي الشقي من كان مثلي ... في حساسيتي ورقة نفسي »

* * *

هكذا قال شاعر ناول الشعـ ... ـب رحيق الحياة في خير كأس
فأشاحوا عنها ومروا غضابا ... واستخفوا به وقالوا بيأس:
قد أضاع الحياة في ملعب الجن ... فيا بؤسه أصيب بمس
طالما خاطب العواصف في الليـ ... ـل وناجى الأموات في كل رمس
طالما رافق الظلام إلى الغا ... ب ونادى الأرواح من كل جنس
طالما حدث الشياطين في الوا ... دي وغنى مع الرياح بجرس
إنه ساحر تعلمه السحـ ... ـرَ الشياطين كل مطلع شمس
أبعدوا الكافر الخبيث عن الهيـ ... ـكل إن الخبيث منبع رجس
اطردوه ولا تصيخوا إليه ... فهو روح شريرة ذات نحس

* * *

هكذا قال شاعر فيلسوف ... عاش في شعبه الغبي بتعس
جهل الناس روحه وأغانيـ ... ـها فساموا شعوره سوء بخس
فهو في مذهب الحياة نبي ... وهو في شعبه مصاب بمس
هكذا قال ثم سار إلى الغا ... ب ليحيا حياة شعر وقدس
وبعيداً هناك في معبد الغا ... ب الذي لا يظله أي بؤس
في ظلال الصنوبر الحلو والزيـ ... ـتون يقضي الحياة حرساً بحرس
في الصباح الجميل يشدو مع الطيـ ... ـر ويمشي في نشوة المتحسي
نافخاً نايه حواليه تهتز ... ورود الربيع من كل قنس
شعره مرسل تداعبه الريـ ... ـح على منكبيه مثل الدمقس
والطيور الطراب تشدو حواليـ ... ـه وتلغو في السرو من كل جنس
وتراه عند الأصيل لدى الجد ... ول يرنو للطائر المتحسي
أو يغني بين الصنوبر أو ير ... نو إلى سدفة الظلام المِسّي
فإذا أقبل الظلام وأمست ... ظلمات الوجود في الكون تقسي
كان في كوخه الجميل مقيما ... يسأل الكون في خشوع وهمس
من مصب الحياة أين مداه ... وصميم الوجود أيان يرسي

حول إنعام . . .

(بقية المنشور في صفحة ٣٣٨)

وهذه مهمة شاقة كالصبابة لا يعرفها إلا من يعانيها ، ولولا العمل العظيم الذي يضطلع به الدكتور شوشة في وزارة الصحة ، وما لمشروعاتها من أثر خطير في مستقبل الشعب المصري ، لكنت رجوته ، ولكتبت أحثّ الحكومة ، على أن ينقطع للمحاضرة في الموضوعات التي توفّر عليها وشغف بها .

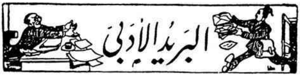
ولكن العمل الذي يضطلع به في الحكومة ينزل في الصميم من مستقبلنا . فصحة الشعب ، من أي النواحي أتيتها ، هي الأرض رأس مالنا الأول ، وواجب محتوم على كل قادر أن يشارك في دراسة المشكلات واقتراح حلول لها والعمل عملا جاداً متصلا على تنفيذها . وقد مضت سنون على الدكتور شوشه ، وهذه الناحية من حياة مصر في المركز من عنايته ، وقد طالما سمعته يتحدث فيها مع زملائه حين كانت وزارة الصحة وكالة ، ثم في وزارة الصحة وكلية الطب ومعهد الأبحاث وغيرها من الهيئات .

وما قطعه هو وزملاؤه . ليس إلا مرحلة قصيرة من طريق وعر ، في حرب تُشن على الجهل والمرض والفاقة ، وستظل أرحاؤها تدور ، حتى تصبح الكنانة جنّة على الأرض .

فؤاد صروف

وعبير الورود في كل واد ... ونشيد الطيور ساعة تمسي
وهزيم الرياح في كل فج ... ورسوم الحياة من أمس أمس
وأغاني الرعاة أين يواريـ ... ـها سكون الدجى وأيان تمسي؟
هكذا يعرف الحياة ويفني ... حلقات السنين حرساً بحرس
يا لها من معيشة في صميم الـ ... ـغاب تضحي بين الطيور وتمسي
يا لها من معيشة لم تدنسـ ... ـها نفوس الورى بخبث ورجس
يا لها من معيشة هي في الكو ... ن حياة غريبة ذات قدس

أبو القاسم الشابي



كليتان تتنافسان :

بين كلية اللغة العربية وكلية دار العلوم تنافس طال أمده ، وكنا نحب أن يكون هذا التنافس بينهما فى ميدان التجديد الذى مات بموت الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ولكنهما يتنافسان على وظائف التدريس فى المدارس الأميرية ، وفى دخول معهد التربية ، وما كان يصح أن يكون بينهما تنافس على ذلك ، لأن المدارس الأميرية بعد أخذ الحكومة فى تعميم التعليم الابتدائى وتوسيع التعليم الثانوى ستتسع أبناء الكليتين ، وربما تحتاج الحكومة إلى كلية أخرى من نوعهما ، ويجب أن يعلم أبناء الكليتين أنه يوجد كلية آداب بجامعة فؤاد وكلية آداب بجامعة فاروق ، كما يوجد بهما كليتان للطب وغيره ، وليس بين هذه الكليات مثل هذا التنافس على الوظائف ، مع أن باب الوظائف لا يتسع أمام هذه الكليات ، كما يتسع أمام كلية اللغة العربية وكلية دار العلوم . ويجب على الحكومة أن تبادر بإزالة أسباب ذلك التنافس ، لأنه مما يضر بمصلحة الوطن ، ونحن فى أشد الأوقات حاجة إلى جمع الكلمة ، وإزالة أسباب الخصام بين طوائف الأمة .

عبد المتعال الصعيدى

إلى الأستاذ وديع فلسطين :

قرأت بشغف تلك القصة التى أهديتها إلىّ[1] ، وإذا كنت لم أر فيها أفكارك الخاصة ، فقد رأيت فيها أسلوبك الخاص الذى أضفيته عليها ، كما لمست فى مقدمتها شخصيتك واستعدادك اللذين عرفتهما من قبل .

إنك تسير فى الطريق الصحيح ، وإننى أرى من الآن تلك المكانة التى ستتبوأها قريباً بفضل اجتهادك ومثابرتك ومواهبك ، فإلى الأمام .

حمادة الناحل

موقف اليهود العرب من الصهيونية

كتب شيخ الصحافة فى الشام الأستاذ يوسف العيسى صاحب جريدة « ألف باء » مقالا بليغاً عن الموقف الأخير الذى وقفه اليهود العرب من الصهيونية ذكر فيه أن ممثل اليهود أمام لجنة التحقيق السيد عبادى أجاب هذه اللجنة حين سألته عن الفرق بين اليهودية والصهيونية بقوله :

إن اليهود والعرب يسلمون كل التسليم بالفكرة الصهيونية ، وبوجوب إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين ، وبلزوم هجرة اليهود والعرب من العراق ومصر وشمالى أفريقية إلى هذه الدولة اليهودية الجديدة

قال الأستاذ العيسى : « وهكذا قطعت جهيزة قول كل خطيب ، وانتهى التدجيل الكلامى الذى دأب زعماء اليهود العرب يسمعونه مواطنيهم المسيحيين والمسلمين من أنهم يشجبون ويلعنون ويمقتون كل من يقول بالصهيونية لأنهم يعتبرون أنفسهم عرباً » .

ثم قال الأستاذ : « كنا دائماً نتجنب إدخال اليهود الوطنيين فى القضية الصهيونية ونحافظ على التفريق بينهما كلما كتبنا فى الموضوع ؛ أما اليوم فقد أراحنا هؤلاء المواطنون من هذا التكلف وصاحوا بأعلى أصواتهم أنهم لا شأن لهم معنا بل هم مع الصهيونية ضدنا ، أما اليوم وقد صرّح الزبد عن الخمر وأظهروا حقيقتهم برضاهم واختيارهم ، فقد حذفنا من قاموسنا كلمة صهيونيين وغير صهيونيين لأن الخصام السياسى أصبح محصوراً بين عرب ويهود على الإطلاق » .

(دمشق) ناجى الطنطاوى

حول لفظ البيوريتنز :

لست أرى ما ذهب إليه الأستاذ وديع فلسطين مع احترامى له وثنائى على حسن عنايته ، فليست هذه الألفاظ صفات ، وإنما هى أسماء لها مدلول أوسع مما تدل عليه الكلمة فى اشتقاقها اللغوى . وهل نترجم الكاثوليكية مثلا والبروتستنتية إلى العربية ، والمعتزلة ، والمرجئة ، والقدرية ، والشيعة ، إلى الأفرنجية ؟

هذا ، ولست أنكر أن إيراد تلك الأسماء الأفرنجية وسط الكلام العربى فيه شىء من الثقل ، ولكن ذلك هو الصواب فيما أعتقد والسلام .

الحقيف

حفلة المعهد الملكى للموسيقى العربية :

قدّم الدكتور محمد شرف الدين سليمان منذ عامين فى حفلة المعهد الملكى للموسيقى العربية للأستاذ على محمود طه « أرواح وأشباح » وقد اختار لحفلته هذا العام أوبريت « دموع الرشيد » وهى للشاعر عبد القادر محمود وسيقوم بإخراجها الأستاذ عثمان أباظة فنرجو للمعهد التوفيق فى عهده الجديد .

عبن

---

[1] مسرحية « الأب » تأليف أوجست سترندبرج . لجنة النشر للجامعيين



قصة ألبانية :

المهـــــد الذهبي . . .

[مهداة للأستاذ الكبير كامل كيلاني]

نقلها الأدبيان :

وهبي اسماعيل حقي وابراهيم خير الله

— ٤ —

أخذ « محمود » طريقه إلى بيته — بعد أن فارق فريداً — وهو يكاد يطير من شدة الفرح ، يلقى التحية على من يقابله من إخوانه ، ويرد تحياتهم بثغر باسم ، ووجه باش ، وصوت يشيع فيه السرور ... وإن رأسه لميدان فسيح تتسابق فيه الأفكار حول المشروعات العمرانية والثقافية التي أراد أن يشق بها طريقه إلى الخلود والمجد ، فسيكون أول مكتشف يجلو عن جبين التاريخ الألباني العظيم ما غمض من حقيقته . وسيتسع بذلك أفق حياته ، ويصبح إنساناً آخر غير محمود المدرس الذي خرج في صباح هذا اليوم إلى المدرسة يعمل جاهداً طول نهاره ، ويعود متعباً مع الليل . سيصبح « مليونيراً » ترنو إليه العيون ، وتشير إليه الأصابع ، ويسير في ركابه الاحترام . وإنه لمشغول بهذه الأفكار إذ مر به صديقه فتحي ماشياً على حذر خشية أن تزلق رجله فيسقط في الوحل ، ولقد اختلس النظر إلى محمود على ضوء الكهرباء التي أنارت الطريق ، لكنه لم يخطر له على بال أن محموداً سيكون — بين عشية وضحاها — مذكوراً على كل لسان ، وموضوع حديث كل إنسان ، وأن اسمه سيتداول مع الأجيال المقبلة ، لما وفق إليه من اكتشافات غيرت وجه التاريخ ، وسجلته مع الخالدين ...

إن المظاهر الخارجية قد لا تعبر تعبيراً صادقا عما تنطوي عليه نفس الإنسان ، من نعيم أو شقاء ، أو حزن أو سرور ؛ فإن فتحي قد رأى محموداً ولم يلحظ فيه هذا التحول ، وكذلك لم تلحظه أمه ولا أخواته الثلاث عند ما جلس معهن على المائدة ، ليؤنسهن ، ويسامرهن ، فقد تناول عشاءه في منزل فريد . ولقد رأينه أكثر سروراً منه في كل وقت ، ولكن لم يمتد بهن الخيال أبعد من أن نجاحه في عمله المدرسي وتمتعه بثقة أصدقائه هو الذي يضفي عليه ثوب هذا السرور دائما .

إن الإنسان ليضيق به المكان ، ولا يستطيع الاستقرار فيه إذا أفعمه الفرح ، وكذلك كان محمود ؛ فقد استحال عليه أن يقنع نفسه بالبقاء في المنزل ، بعد أن فرغت أمه وأخواته من عشائهن ، وانصرفن لبعض الشئون ، فغادر البيت وليس له مقصد معين . ولما كان الوقت قريبا من شهر رمضان : والناس جادون في الاستعداد له ، فإن المحال التجارية والمقاهي كانت تعمل إلى وقت متأخر من الليل ، فراق لمحمود أن يذهب إلى المقهى ثانية يقضي فيه شطراً من هذا الليل ، وقدر أنه سيتلاقى — حتما — مع فريد ، فإنه لن يستطيع الصبر على الانتظار في البيت ، ولكنه أخطأ التقدير ، فلم يجد إلا صديقه « شفيقا » فحياه وقال له : هل أنت هنا وحدك ؟ فرد عليه شفيق التحية وقال : ما دمت قد حضرت فلن أكون وحدي .

ثم جلسا متقابلين ونظر محمود إلى شفيق وقال وهو يبتسم : إن ملامح وجهك ، ونبرات صوتك ، تدلنا على تغير طرأ عليك فماذا بك يا شفيق ؟

— لا شيء ! وكيف أتغير ؟

— لا أدري ! ولكنك لست كما أنت في كل يوم .

— إن الإنسان لا يدوم على حال واحدة ، وتلك سنة الطبيعة وناموس الوجود . وعسى الله أن يأتي بالفرج . وعند ما نطق شفيق بهذه العبارة اجتهد أن يملك زمام نفسه أمام نظرات محمود النفاذة إلى القلوب . ولكن محموداً وقد أراد التسلية ، وقتل الوقت ، فقد أمطر شفيقا وابلا من الأسئلة ؛ فقال له : ألست من أصدقائك ، ومن حقي أن أعرف ما حل بك ؛ فقد أستطيع أن أمد لك يد المساعدة ؟

— لم يحل بي مكروه ، والحمد لله . ثم لماذا تسألني هذا السؤال ؟

— لأني رأيتك هذا اليوم في الطريق مهموما ، وآية ذلك

أنك لم تحينا . فتحرك شفيق فى كرسيه فى حركة عصبية وقال فى شىء من الغضب : ذلك لأن لدى أشغالا هامة ، فليس صديقك فريد هو المشغول وحده .

— ولماذا تقحم فريداً فى هذا الكلام وهو ليس معنا .

— إنه متكبر ، يدل بثراء والده ، ويضع نفسه فى غير موضعها ، وأولى له أن يطرح هذا جانبا وإننى أمقته لذلك .

— لو تعلم عنه مثل ما أعلم ، ما خالجك شك فى سمو خلقه ، وصفاء نفسه ، إنه مثل من أمثلة المروءة والنبل .

— أنا لا أعلم عنه إلا أن ثراء والده أفسد خلقه ، ووأد مروءته ، وإن الغنى الذى يفاخر به ليس وقفا عليه ؛ فربما أصبح أناس آخرون فى وقت قريب أكثر منه ثراء ، وأيسر منه حالا

— « اشقودراه » كبيرة وبها كثير من الأغنياء .

— نعم ! ولكنى أقصد أن من الممكن أن يظهر فى سمائها أغنياء جدد فجأة لا يستطيع الخيال أن يصل إلى ما يملكون من مال. فاضطرب قلب محمود خوفا من أن يكون شفيق قد التقى ببيرام وعلم من أخباره شيئا ، ولكنه اجتهد فى إخفاء تأثره وقال : نعم ! ذلك ممكن وميسور ، وإنه ليكفى الإنسان ليكون غنيا أن يربح « يانصيب دوبلين » .

— وما قيمة « اليانصيب » ؟ . إن سبلا كثيرة للغنى تنفتح أمامك ، إذا أسعدك الحظ ، وواتتك الظروف.

— وماذا تكون هذه السبل ؟ بربك دلنى على إحداها !

— ها أنت تسخر من كلامى! ولكن حقا توجد طرق كثيرة

— أنا لا أنكر أنها توجد ! ولكنى أومن بأن الحظ لن يحالفك أبداً .

— وأنى لك ذلك ؟ ألأنه خدم صديقك فريداً ، أم ماذا ؟

— وما شأن فريد هنا ، لكل إنسان خطة فى الحياة .

— على كل حال ، سأحدثك بعد قليل . ثم سكتا وقتا تشتت فيه فكر محمود واعتقد أن شفيقا قد اشتم عبير الكنز — لا محالة — وأن بيراما — لا بد — وأن يكون قد خانهما . ولم يتحول عن هذا الاعتقاد إلا عند ما قال شفيق : هل تعرف شيئاً عن مادة « أبونوس » .

— نعم أعرفه ! ولماذا ؟

— ما قيمة هذا المدن بين المعادن الأخرى ؟

— إن قيمته عظيمة ! كالذهب تقريبا ، ولكن لماذا تسألنى عنه ؟ هل اكتشفت منجما؟

— إن لم أكن قد اكتشفته فسأكتشفه قريبا . فقال محمود ضاحكا — بعد أن اطمأن أن بيرام لم يفلت من يدهم ، وأن شفيقا إنما يحلم بآبار من «أبونوس»: أرجوك ألا تنسانى ياشفيق ، ثم أخذ الحديث مجرى آخر إلى أن انتصف الليل فقام كل منهما إلى منزله . وقد آثر محمود أن يسلك إلى بيته طريقا طويلا يمر بمنزل فريد ، رجاء أن يقابله بيرام عائداً فإن ميعاده قد حان ، ولكنه لم يصادفه .

قضى محمود ليلة « نابغية » فقد أخذ موضعه من سريره ، ولكن النوم ضل طريقه إلى عينيه ، فلم يغمض له جفن . وقد تمثلت له حوادث النهار حقائق لا يعتورها شك ، ولا يتسرب إليها وهم . ولقد امتد به الخيال فذهب يرافقه السيد عفت ونجله فريد إلى « دومن » وقابلوا بيراما فى بيته وأرشدهم إلى الكهف وقادهم فى مسالكه ورأوا بأنفسهم ما احتواه الكهف من ذهب نضار ، وتماثيل عجيبة ، انفسح لها مجال الفخر بأن يد الزمن عجزت أن تمتد لها بسوء طوال هذه القرون المديدة ، التى مرت بها ، وفى هذا دلالة على أن صانعها فى ذلك العهد الناير قد ضرب فى جودة الفن بسهم وافر . وأن الألبان أهل حضارة قديمة ، ومدنية عريقة ، وهذا الكهف بما فيه شاهد عدل ، وحجة دامغة على من يدعى الإنكار .

وهاهى ذى الأزيار الكبيرة قد امتلأت بالذهب ولا يعلم إلا الله وحده متى جمع هذا الذهب ؟ ومن أين جمع ؟ ومن جمعه ؟ فقد تكون الجنود الألبانية المنتصرة قد غنمته من عدو مغلوب فى ذلك العهد البعيد ، أو تكون الحكومة القائمة آنذاك قد استبدلت به الأسرى والسبايا التى عادت بها جيوشها المظفرة ، أو تكون قد جمعت من أفراد الشعب ظلما بأيدى حكام طغاة ضلت الرحمة طريقها إلى قلوبهم …

وهاهى ذى قد زالت من الوجود الوسائل والغايات التى جمع بها ومن أجلها هذا الذهب ، وبقى هو ليبدأ اليوم صفحة جديدة فى حياة أناس آخرين لا صلة تربطهم — فى الواقع — بمن جمعه ، ولم يقدروا فى يوم ما أن القدر قد كتب لهم فى سجل حياتهم هذه السعادة ، وهذا النعيم .

ها هو ذا القنديل المعلق فى وسط الكهف يقرأ علينا من أخبار ذلك القصر العظيم الذى كان يشع فيه ضوؤه ، ويقص علينا من تاريخ أهله العجب العجيب ، فهؤلاء أمراء الأجناد وأبطال الحرب ينتظم عقدهم كل مساء إذا أوغل الليل ، يديرون

مع الحاكم خطط الهجوم على العدو ، ويتشاورون فى أنجع الطرق وأضمن الوسائل للتغلب عليه ، وإن عددهم ليتناقص واحداً واحداً على مر الأيام حتى لم يبق منهم أحد ، فقد فنوا جميعا ، ولحق بهم الملك بعد قليل — سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا. ولقد قام على أنقاضهم جماعة فهموا الحياة فهما آخر فكان وقتهم موزعا بين الرقص والغناء وغيرهما مما يشيع البهجة والسرور فى النفس ، ويمسح عن القلب ما يكون قد علق به مما يباعد بينه وبين الانشراح .

وقد طوى الزمن هؤلاء وأولئك فأصبحوا تاريخا يسرد وبقيت وحدى تذكاراً لذلك الماضى البعيد ...

المهد فى زاوية من زوايا الكهف يتحدث فى صلف عن أولئك الملوك الذين تأرجحوا فيه أطفالا وداعبوا فيه صغارهم حكاما كباراً ، وهم معقد رجاء الأمة ، وملتقى آمال الشعب .

دارت كل هذه الخواطر فى رأس محمود فباعدت بينه وبين النوم إلى أن طلعت الشمس ، فهب من سريره واستبدل ملابسه وأسرع إلى منزل فريد ، وكله شوق إلى رؤية ما استحضره بيرام من العينات .

ولكنه لما دخل على فريد ، ورأى الألم والحزن مرتسمين على صفحة وجهه ، والقلق والاضطراب فى حركاته وسكناته قال له : ماذا بك ؟ ألم يأت بيرام بعد ؟

— لقد انتظرته إلى طلوع الشمس . لكنه لم يأت .

— كيف ذلك ؟ أتراه كان يهزأ بنا ؟

— لا أدرى ! وإنى متعب جداً ، ولم أذق طعم الراحة طيلة الليل وأود أن أستريح فأذن لى ، فخرج محمود وترك فريداً يستعد للنوم . ولما كان فى الطريق غير بعيد عن منزل فريد رأى السيد لطفى يذهب ويجىء — فى طول الشارع وعرضه — كأنه يراقب من فى المنزل ، أو كأنه على موعد مع أحد ، فعجب من وجوده هذا الوقت المبكر فى هذا المكان ، الذى ليس لأحد فيه صلة به ، ثم فى سرعة البرق تذكر ما دار بينه وبين شفيق فى الليلة المنصرمة ، وبدأ يتسرب الشك إلى قلبه ، وكان قد حاذاه ، فحياه تحية الصباح ، فرد لطفى تحيته فى صوت مضطرب خافت ، وبدا عليه شىء من الارتباك ، فقد كان يود ألا يراه أحد من أصدقائه فى وقفته تلك . أما محمود فقد أسرع فى طريقه إلى المدرسة شارد التفكير ، حائر اللب ، يود أن يعرف لماذا تأخر بيرام ؟ ولماذا وقف لطفى أمام منزل فريد بالذات فى هذه الساعة المبكرة

وقد أحس فى نفسه شعورا قويا بأن شفيقا وصديقه لطفى إنما يقومان معا بعمل مشترك ، وليس بعيداً أن يكونا قد أوقعا بيراما فى الشرك . ولقد طغى هذا الشعور على محمود — وكان قريباً من المدرسة — فرأى أن من الحيطة ان يرجع ، ويقف فريدا على ما كان من شفيق ليلة أمس ، وأنه رأى السيد لطفى الآن يدور حول منزله ، ويطلعه على إحساسه من أن شفيقا ولطفى يعملان معاً لغرض مشترك . وبينا هو عائد لمح من بعيد السيد لطفى يتحدث فى كثير من الاهتمام إلى قروى ربط رأسه بمنديل أحمر ستر كثيراً من وجهه ، بحيث يصعب على إنسان لم يكن رآه كثيراً — أن يعرف من هو ، ولكن محموداً أحس إحساسا قويا أن هذا القروى لن يكون غير بيرام ، فاندفع نحوهما بغضب وقال بحدة :

— أين كنت يا بيرام ؟ لماذا لم تجىء الليلة كما وعدت ؟ أتكذب علينا ؟

— تمهل ياسيدى ! ولا تجعل للغضب سبيلا إلى قلبك ، فسأقص عليكم كل شىء .

وهنا تدخل السيد لطفى ، وقال لمحمود بصوت شاع فيه الغضب ... ... :

— إن هذا الرجل لا سلطان لك عليه ، فقد تكلم معى أولا وليس من حقك أن تقف معنا ، فامض فى طريقك ، ولا تتدخل فيما ليس من شأنك .

— كيف تقول إنه تكلم معك أولا ؟ إنه أكد الأيمان أنه لم يسبقنا إلى معرفة أمره أحد .

— لا أريد أن أعرف ماذا قال لكم ، ولكن أريد أن تفهم أنه مرتبط معى فقط .

— معك أنت ؟ قال محمود هذه الكلمة بغضب شديد ، دل عليه احمرار وجهه ، وبريق عينيه ، وتقلص شفتيه ، وخشونة صوته ثم تراميا بألفاظ شديدة اللهجة قوية الوقع ... ولكن بيراما قد وضع حداً لهذا التراشق بالشتائم ؛ فقد صاح فيهما :

— مهلا أيها الفاضلان ! فلست مرتبطا مع أحد منكما ، فلا تقتتلا من أجلى ، فمهمتى فى هذا المنزل . وأشار إلى منزل السيد عفت والد فريد : فقال محمود :

— حسن ! عليك أن تذهب إليه الآن .

فابتعد السيد لطفى عنهما وقال مهدداً متوعداً :

— اذهبا حيث شئتما ، وسنرى . (البقية فى العدد القادم)